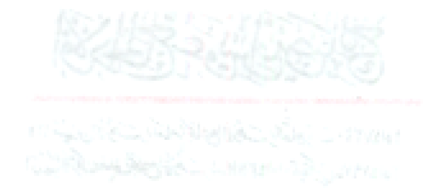
سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

للأطفال

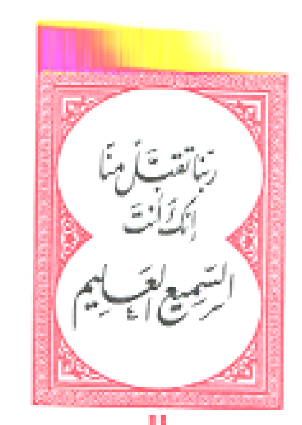
الشيخ
محمود المصري
أبو عمار

مكتبة الصفا


سيرة الرسول
صلى الله عليه وسلم
للأطفال







الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

رقم الإيداع: ١٩٦٥٦ / ٢٠١٠



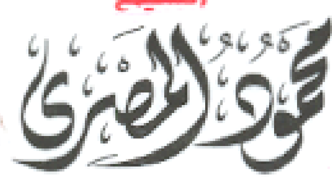


١٢٧ ميدان الأزهر أمام الجامع الأزهر القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
ادريسة الأتراك خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣٦١٥١ فاكس ٢٥١٤٧٩٧٤

سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

للأطفال

الشيخ



أبو عمار



تليفون ٢٥١٤٧٢٢٠ تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فالإسلام هو دين الهدى والنور، الذى لا سعادة للبشرية ولا أمن لها، ولا سعادة فى الدنيا والآخرة، إلا عندما تهتدى بهداه، وتستضىء بنوره، مخلصة فى عبوديتها لله الخالق، تأتمر بأمره، وتتبع منهجه، نابذة كل منهج من المناهج الأرضية المخالفة له.

والأولاد أمانة فى أعناق الوالدين، والوالدان مسؤولان عن تلك الأمانة، والتقصير فى تربية الأولاد خلل واضح، وخطأ فادح؛ فالبيت هو المدرسة الأولى للأولاد، والبيت هو اللبنة التى يتكون من أمثالها بناء المجتمع، وفى الأسرة

الكريمة الراشدة التى تقوم على حماية حدود الله وحفظ شريعته، وعلى دعائم المحبة والمودة والرحمة والإيثار والتعاون والتقوى: ينشأ رجال الأمة ونساؤها، وقادتها وعظماؤها.

والولد قبل أن تربيه المدرسة والمجتمع، يربيه البيت والأسرة، وهو مدين لأبويه فى سلوكه الاجتماعى المستقيم.

ومكتبة الصفا تقوم بدورها فى توعية المجتمع بواجباته الدينية والاجتماعية كما تعودت دائمًا، فبعد أن وفقها الله لطباعة ونشر القرآن الكريم، ونشر كتب التفسير والحديث.

ونشر كتب الداعية الكبير فضيلة الشيخ «محمود المصرى».

نقدم اليوم دُرة تضاف إلى مطبوعاتنا وهو كتاب **«سيرة الرسول ﷺ للأطفال»** لفضيلة الداعية محمود المصرى.

استطاع فيه - حفظه الله - أن يتحدث مع الأطفال

بلغة عصرية جميلة.

يعلمهم فيه أصول دينهم، عن طريق القصص والحكايات.

وسترى أخى القارئ الكريم مدى السلاسة والسهولة التى تميزت بها عبارات هذا الكتاب حتى يناسب عقول رجال المستقبل.

ونعدكم أخى القارئ الكريم بمزيد من المطبوعات فى كافة المجالات، التى نرجو من الله عز وجل أن يتقبلها منا قبولاً حسنًا وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



جعلها الله منارًا لخدمة العلم والدين

بين يدى الكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٠٢).
(٢) سورة النساء: الآية: (١).

أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[1] .

أما بعد:

فإن الذى يحب أحدًا من البشر فإنه يحب أن يسمع سيرته دائمًا ويتمنى أن يعرف كل تفاصيل حياته . . . فكيف بمن يحب رسول الله ﷺ .

حبايبى الحلوين: لا شك أننا جميعًا نحب رسول الله ﷺ ونتمنى أن نعرف سيرته العطرة كاملة من بدايتها إلى آخر لحظة فى حياته ﷺ .

ومن أجل ذلك كتبت هذا الكتاب لحبايبى الحلوين من أجل أن يعرفوا كل شىء عن سيرة الحبيب ﷺ .

ولكن لابد أن نعلم أننا لا نتعلم سيرة الرسول ﷺ على أنها مجرد قصة نتسلى بها ولكن لنتأسى بالنبى ﷺ فى كل أقواله وأفعاله ولنجعل حياتنا كلها لنشر هذا الدين

(١) سورة الأحزاب: الآيتان: (٧٠، ٧١).

العظيم كما كان يفعل النبى ﷺ .

والآن أترككم جميعًا لتستمتعوا بأطيب وأجمل سيرة في الكون كله... ألا وهى سيرة الرسول ﷺ .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

عمو / محمود المصرى

أبو عمار

ومن هنا كانت البداية

حبايبى الحلوين: وقبل أن نبدأ فى سرد سيرة الرسول ﷺ تعالوا بنا لنعرف حالة المجتمع الجاهلى قبل بعثة النبى ﷺ لنرى كيف جاء النبى ﷺ إلى الكون فأنار الله به الصدور المظلمة وهدى به القلوب الضالة وأنقذ به البشرية وأخرجها من الظلمات إلى النور فقد أرسله الله (عز وجل) رحمة للعالمين ﷺ .

حالة المجتمع الجاهلى قبل بعثة الحبيب ﷺ

لقد كان المجتمع الجاهلى قبل بعثة النبى ﷺ فى أسوأ حالة شهدها التاريخ حتى قال النبى ﷺ واصفًا هذه الفترة: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم

وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»[1].

فكان من جملة العادات السيئة التى كانت منتشرة فى أرض الجزيرة قبل الإسلام:

(١) شرب الخمر:

فقد كانوا يشربون الخمر كثيرًا فى مجالسهم وندواتهم وبيوتهم وكانوا يتباهون بذلك.

(٢) القمار المعروف بالميسر:

وهذه عادة سكان المدن فى الجزيرة كمكة والطائف وصنعاء ويثرب وغيرها.

(٣) وأد البنات:

فقد كان الرجل يدفن ابنته بعد ولادتها مباشرة حية فى التراب خوفًا من العار.

(٤) قتل الأولاد:

فقد كانوا يقتلون الأولاد مطلقًا ذكورًا كانوا أو إناثًا.. وذلك عند وجود الفقر أو المجاعة أو حتى عند الخوف من

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

حدوث فقر شديد أو قحط شديد.

فحرم الإسلام هذه العادة السيئة القبيحة بقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾[1] ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾[2] والإملاق شدة الفقر.

(٥) تبرج النساء:

فقد كانت المرأة تخرج كاسية عارية كاشفة عن محاسنها أمام الرجال.

(٦) العلاقات المحرمة بين الرجال والنساء:

وذلك بالاتصال بينهم وتبادل الحب فى السر والوقوع فى الفواحش التى حرمها الله (جل وعلا).

(٧) شن الحروب على بعضهم البعض:

فقد كانوا يشنون الحروب على بعضهم البعض من أجل السرقة والسلب والنهب.

وكانت الحروب تجرى بينهم من أجل أتفه الأسباب.

(١) سورة الأنعام: الآية: (١٥١).

(٢) سورة الإسراء: الآية: (٣١).

فـربما قامـت الحرب بينهـم بسبب ناقـة أو بسـبب أن حصانًا سبق الآخر أو بسبب بئر ماء أو غير ذلك.

وكانت الحروب تستمر بينهم لسنوات طويلة مثل حرب البَسوس وداحس والغبراء وحرب بُعاث وحرب الفِجار.

(٨) عبادة الأصنام:

فقد كانوا يتاجـرون فى الأصنام بل ويعبدونها من دون الله (جل وعلا) وكانت الأصنام منصوبة حول الكعبة... وكان من أشهـرها: (اللات - والعُزَّى - ومَناة - وهُبل - وإساف - ونائلة).

* فهذه بعض العـادات السيئة التى كـانت منتشرة فى أرض الجزيرة قبل بعثة النبى ﷺ.

* * *

العادات الحسنة التى كانت فى المجتمع الجاهلى

ومع تلك الجاهلية التى كان يعيش فيها المشركون إلا أنه كانت هناك باقة عطرة من العادات الحسنة نُجملها فيما يلى :

(١) الصّدق .. . والمراد به صدق الحديث وهو خُلق كريم عُرف به العرب فى الجاهلية قبل الإسلام فزاده الإسلام تقريراً وتمتينًا .

(٢) قِرىَ الضيف وهو إطعامه، وهو من الكرم الذى يُحمد صاحبه عليه .

(٣) الوفاء بالعهود وعدم نكثها ومهما كلفت من ثمن وهو خُلقٌ سامٍ شريف وجاء الإسلام بتقريره وتأكيده قال تعالى : ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾[1] فى بيان صفات

(١) سورة البقرة: الآية: (١٧٧).

المؤمنين من سورة البقرة.

(٤) احترام الجوار وتقرير مبدأ الحماية لمن طلبها، وعدم خفره مهما كانت الأحوال.

(٥) الصبر والتحمل.

(٦) الشجاعة والنجدة والأنفة وعدم قبول الذل والمهانة وهي صفات امتاز بها العرب نساءً ورجالاً، وأشعارهم وأقاصيصهم شواهد ذلك.

(٧) احترام الحرم والأشهر الحُرم، بعدم القتال فيها إلا من ضرورة، وتأمين الوافدين إلى الحرم، ولو كانوا ذوي سوابق في الشر.

(٨) تحريمهم نكاح الأمهات والبنات.

(٩) اغتسالهم من الجنابة.

(١٠) المداومة على المضمضة والاستنشاق.

(١١) السواك والاستنجاء وتقليم الأظافر، ونتف الإبط.

(١٢) الختان للأطفال، والخفاض للبنات.

(١٣) قطعهم يد السارق اليمنى.

(١٤) الحج والعمرة.

فهذه جملة من العادات الحسنة الحميدة التى عُرف بها العرب فى الجاهلية قبل الإسلام. وإنها وإن لم تكن عامة فى كل فرد فإنها الطابع العام على غالبيتهم.

مكة تتهيأ لاستقبال النبوة

لقد هيأ الله (عز وجل) مكة من قديم الزمان لاستقبال النبى ﷺ ورسالته العظيمة.

فقد دلَّ الله (جل وعلا) خليله إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام) على قواعد البيت ليرفعا تلك القواعد ويصبح ذلك البيت فيما بعد قبلة للنبى محمد ﷺ هو وأمته.

وقبل ميلاد النبى ﷺ فإنه (سبحانه وتعالى) دلَّ عبد المطلب جد النبى ﷺ على أصول بئر زمزم حتى حفرها واستخرجها.

* ولقد كان لعبد المطلب مكانة عالية عند أهل مكة حتى سلّموا له فى كل شىء.

قصة حفر زمزم

حبايبي الحلوين: وها هي قصة حفر بئر زمزم كما حكاها عبد المطلب جد النبي ﷺ .

يحكى عبد المطلب أنه كان نائمًا في الحجر عند الكعبة .فأتاه في المنام من يقول له : احفر طَيبة . فقال عبد المطلب : وما طيبة؟ فلم يُجبه بشيء وذهب عنه .

فلما كان في اليوم التالي نام في نفس المكان فأتاه في المنام من يقول له : احفر برَّه . فقال : وما بَرَّة؟ فلم يُجبه بشيء وذهب عنه .

وفي اليوم الثالث نام في نفس المكان فأتاه في المنام من يقول له : احفر المضنونة؟ فقال : وما المضنونة؟ فلم يُجبه بشيء ، وذهب عنه .

وفي اليوم الرابع نام في نفس المكان فجاءه من يقول له في المنام : احفر زمزم لتسقي الحجيج الأعظم .

ووصف له مكانهـا أنها فى المكان الذى سينقـر فيـه غراب جناحاه أبيضان عند قرية النمل.

* فما كان من عـبد المطلب إلا أنه أخذ ابنه الحارث ابن عبـد المطلب وأخذ مـعه المعـول (الفأس) وحفـر فى نفس المكان الذى وقف فيه الغـراب... وظل يحفر حتى وصل إلى حافة البئر فكبَّر وكانت قـريش تراقبه فلما وجدوه يكبر علموا أنه وجد شيئًا ثمينًا فـلما اقتربوا ورأوا البئر قالوا له: يا عبـد المطلب هذه بئر أبينا إسمـاعيل وإن لنا فيـها حقًا فأشركنا معك فيها.

فقـال: مـا أنا بفاعل... إن هذه البـئر من حـقى أنا وحدى.

فقالوا: لن نتركك حتى تقسم البئر بيننا.

فقال لهم: اجعلوا بينى وبينكم حكمًا يحكم بيننا.

فقـالوا: نتـحاكم إلى كـاهنة بنى سـعد... وكـانت بأشراف الشام.

* فـخرج عـبد المطلب ومـعه نفـر من بنى أميـة...

وركب من كل قبيلة من قريش نفرٌ. . وكانت الأرض صحراء والمسافة طويلة فنفد الماء الذى مع عبد المطلب وأصحابه فطلبوا الماء من الذين حولهم فأبوا أن يعطوهم ماءً وقالوا: نحن بأرض صحراء ونخشى إن أعطيناكم الماء أن نهلك ونموت.

فقال عبد المطلب : إنى أرى أن يحفر كلُّ رجل منكم حفرته لنفسه بما لكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحدًا، فقالوا: نِعم ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشًا.

ثمَّ إنَّ عبد المطلب قال لأصحابه.

والله إن انتظارنا للموت عجزٌ شديد. . فتعالوا بنا لنرحل عسى الله أن يرزقنا الماء ببعض البلاد.

فارتحلوا فلما قامت ناقة عبد المطلب انفجرت من تحت رجلها عين ماءٍ عذب فكبَّر عبد المطلب وكبَّر أصحابه ثم

نزل فشرب وشرب أصحابه وملأوا أوعيتهم كلها ثم دعا كل القبائل وقال لهم: هَلُمُّوا إلى الماء فقد سقانا الله.

فجاءوا فشربوا، واستقوا كلهم، ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا، والله ما نخاصمك فى زمزم أبدًا، إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذى سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدًا. فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم».

قصة نذر عبد المطلب أن يذبح أحد أبنائه

وبعد المعاناة التي وجدها عبد المطلب من قريش فى قصة حفر زمزم نذر إن رزقه الله عشرة أولاد ليدافعوا عنه ويحموه أن يذبح أحدهم لله عند الكعبة.

فلما رزقه الله عشرة أولاد وعرف أنهم سيدافعون عنه ويحمونه من الناس أخبرهم بنذره ودعاهم إلى أن يساعدوه فى الوفاء بهذا النذر فأطاعوه وقالوا له: ماذا نفعل؟

فقال: ليأخذ كل واحد منكم قدحًا ويكتب فيه اسمه. . . ففعلوا ذلك فأخذ منهم الأقداح ودخل بها على (هُبل) وكان هو الصنم الذى يحتكمون إليه. . . وخرجت القُرعة على ولده الأصغر (عبد الله).

وكان عبد الله أحب أولاده إلى قلبه. . . فماذا يصنع؟

هل يطيع أمر الآلهة أم ماذا يفعل؟

وبعد حيرة شديدة أخذ عبد المطلب ابنه وحبيبه عبد الله وقرر أن يذبحه فلما أخذ السكين وأراد أن يذبح ولده عبد الله (والد الرسول ﷺ) خرجت إليه قريش لتمنعه من ذبح ولده الصغير عبد الله حتى لا تصبح عادة للعرب بعد ذلك فيذبحوا أولادهم.

وأشاروا عليه أن يذهب إلى عرافة تدّعى معرفة الغيب فى أرض الحجاز ليستشيرها فى هذا الأمر.

فانطلقوا حتى وصلوا إليها وأخبروها بالخبر فقالت: اذهبوا عنى الآن حتى يأتينى تابعى فأسأله. . . فعادوا إليها فى الغد فسألتهم: كم الدية فيكم؟ فقالوا: عشرة من الإبل.

فقالت: ارجعوا إلى بلادكم وقربوا صاحبكم (عبد الله) وضعوا أمامه عشرة من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح فإن خرجت على الإبل فاذبحوها وإن خرجت عليه فزيدوا عشراً من الإبل حتى تخرج القرعة على الإبل فاذبحوها فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم.

فعادوا إلى مكة وقام عبد المطلب يدعو الله ثم قرب ابنه عبد الله وعشراً من الإبل. وقام عبد المطلب عند (هُبل) يدعو الله.

ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشراً من الإبل؛ فبلغت الإبل عشرين.

.... - إلى أن قال - : وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل مئة، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل؛ فقالت قريش ومن حضر: قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب، فزعموا أن عبد المطلب قال: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث

مـرات؛ فضـربوا على عبـد الله وعلى الإبل، وقام عـبد المطلب يدعـو الله، فـخرج القـدح على الإبل، ثم عادوا الثانية، وعبد المطلـب قائم يدعو، فضربوا فـخرج القدح على الإبل؛ ثم عادوا الثـالثة، وعبـد المطلب قائـم يدعو الله، فضربوا فخرج القدح على الإبل.

* فنحروا الإبل وتركوها للناس ليأكلوا منها لا يمنعهم منها أحدٌ.

* وبهذا كتب الله النجاة لعبـد الله الذى سيخرج من صلبه أطهر إنسان عرفته الدنيا... ألا وهو الحبيب محمد ﷺ.

* ولقد ذاع فى البلاد قصة نجاة عبد الله من الذبح.

وأعادت هذه القصة إلى أذهان الناس ذكـرى إسماعيل (عليـه السلام) جد العـرب الذى نجَّاه الله من الذبـح قبل ذلك وفداهُ بذبح عظيم.

* وصـارت قصـة نجاة عـبـد الله من الذبح على كل لسان يتحدث بها الناس فى جلَساتهم ومنتدياتهم.

* * *

زواج عبد الله من آمنة بنت وهب

وبعد فترة من الزمن كَبُرَ عبد الله وبلغ سن الزواج فأراد أبوه عبد الله المطلب أن يُزوجه وأن يفرح به.. فاصطحبه إلى بنى زُهرة ليُزوجه من فتاة تُسمى آمنة بنت وهب.

وتم الزواج وشهدت قريش عُرسًا لم تشهده من قبل واختلطت فرحة نجاة عبد الله بفرحة زواجه من آمنة بنت وهب.

* وبعد فترة قصيرة أخبرت آمنة بنت وهب زوجها عبد الله بأجمل خبر كان يتمناه... أخبرته بأنها حامل... ففرح بذلك فرحًا شديدًا... ولكنه لم يعلم أنه لن تكتمل فرحته فقد خرج فى مناكب الأرض بحثًا عن لقمة العيش وذهب فى رحلة الصيف إلى الشام فمرض فى الطريق ووافته المنية فمات فى طريق العودة.

وكانت آمنة بنت وهب تنتظر زوجهـا عبد الله لتكتمل سعادتها ولكن سـرعان ما وصل إليها خبـر موته ففاضت دموعها على خديها ولم تكن تتخيل أن تفقد زوجها بهذه السرعة.

* لقد مـات عبـد الله بالمدينة المنورة وهو راجع وترك هذه النسمـة الطاهرة، وكـأن القدر يقـول له: قد انتـهت مهمتك في الحياة، وهذا الجنين الطاهر يتولى الله عز وجل بحكمته ورحـمته تربيته وتأديبه وإعـداده لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

* * *

قصة أصحاب الفيل

كان ياما كان.

كان هناك رجل اسمه أبرهة... وكان أبرهة الحبشى قد كلفه حاكم الحبشة النجاشى بأن يكون أميرًا على صنعاء (فى اليمن).

وكان أبرهة نصرانيًا... وكذلك كان النجاشى حاكم الحبشة.

وكان يسمع كثيرًا عن الكعبة وبيت الله الحرام..

وأن العرب يحجون إلى هذا البيت، فامتلأ قلبه حقدًا على العرب وجلس مع نفسه يفكر كيف يصرف العرب عن هذا البيت؟

وبعد تفكير عميق هداه شيطانه إلى أن يبنى كنيسة كبيرة فى صنعاء سماها «القلَّيس» لم يرَ الناس مثلها فى زمانهم.

ثم كتب إلى النجاشى حاكم الحبشة قائلاً له: إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبن مثلها لملك كان قبلك أبدًا... وإنى لن أهدأ أبدًا حتى أصرف إليها حج العرب بدلاً من أن يحجوا إلى الكعبة.

* وكان أبرهة الحبشى قد سخَّر أهل اليمن فى بناء هذه الكنيسة الخسيسة وسخرهم فيها أشد أنواع التسخير.

وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة.

وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخامًا وأحجارًا وأمتعة عظيمة وركَّب فيها صُلبانًا من ذهب وفضة.

وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس وجعل ارتفاعها عظيمًا جدًا واتساعها باهرًا.

* ولكنه رأى أن العرب لا تتجه إلا إلى البيت العتيق، ورأى أهل اليمن أنفسهم يَدعون البيت الذى بناه، وينصرفون إلى مكة؛... واشتد غيظُ العرب، واشتعلت

نيران الحقد فى نفوسهم فقام رجل من كنانة فخرج من أرضه حتى وصل إلى صنعاء ودخل الكنيسة فى وقت لم يكن فيها أحد وقضى حاجته فى الكنيسة وترك فيها تلك النجاسات وخرج.

فلما علم أبرهة بذلك، غضب غضبًا شديدًا وقال: من صنع هذا؟

فقيل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت الذى تحجُّه العرب بمكة لما سمع بقولك: إنك تريد أن تصرف حجَّ العرب إلى بيتك هذا فغضب فجاء فأحدث فيها.

فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه.

ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت.

ثم سار وخرج معه بالفيل وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقًّا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام.

فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم

يقال له ذو نفر.

فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريده من هدمه وإخرابه. فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله.

فهُزم ذو نفر وأصحابه وأُخذ له ذو نفر فأُتي به أسيرًا.

فلما أراد قتله قال له ذو نفر: يا أيها الملك لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيرًا لك من القتل. فتركه ولم يقتله وحبسه عنده في وثاق وكان أبرهة رجلاً حليمًا.

* ومضى أبرهة في طريقه يريد هدم الكعبة.

ولما وصل إلى أرض (خثعم)، خرج له رجل اسمه نُفيل بن حبيب الخثعمي ومعه رجال أقوياء من قبيلة خثعم «وهما: شهران وناهس» مع جماعة أخرى من قبائل العرب، فقاتلوا أبرهة الحبشي، فهزمهم أبرهة وأخذ نُفيل ابن حبيب أسيرًا.

فلما أراد قتل نُفيل، قال له نُفيل: أيها الملك! لا تقتلني، فإني سأعمل معك وسأكون لك دليلاً في أرض العرب أدلك على الطريق. فتركه أبرهة وخلَّى سبيله على أن يكون دليلاً له يُعرفه الطريق.

* فلما وصل أبرهة إلى بلاد الطائف، خرج إليه رجل اسمه مسعود بن معتب بن مالك ومعه جماعة من رجال ثقيف، فقالوا له: أيها الملك: إنما نحن عبيدك وسوف نكون طوع أمرك وسنرسل معك أيضًا مَنْ يدلك على الطريق إلى الكعبة..

* وسار أبرهة حتى وصل إلى مكان اسمه (المغمس) فأرسل رجلاً من الحبشة يقال له: الأسود بن مفصود حتى وصل إلى مكة، فأخذ أموال تهامة من قريش وغيرهم وأخذ مائتي بعيرٍ لعبد المطلب بن هاشم (جَدّ النبي ﷺ)... وكان عبد المطلب كبير قريش وسيدهم.

فأرادت قريش وكنانة وهذيل ومن كان من الحرم أن

يقاتلوا أبرهة ولكنهم أحسوا بأنهم لن يقدروا عليه فتركوا ذلك.

* **وهناك بعث أبرهة رجلاً اسمه:** حناطة الحميري إلى مكة وطلب منه أن يسأل عن سيد أهل هذا البلد... وأن يخبره بأن أبرهة ما جاء ليقاتلهم وإنما جاء لهدم الكعبة، فإن تركوه يهدم الكعبة، فلن يتعرض لهم.. وإن تعرضوا له فسوف يقتلهم.

ثم قال له أبرهة: فإن وجدت سيد أهل مكة لا يريد حربي فأتني به، فلما دخل حناطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له: عبد المطلب بن هاشم.

فجاءه فقال له: ما أمره به أبرهة.

فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام.

فإن كان الله (عز وجل) سيحفظ بيته ويحميه من أبرهة فهو بيته وحرمه وإن يترك أبرهة يهدمه فليس عندنا

أحدٌ يستطيع أن يمنع أبرهة.

* فقال له حناطة: انطلق معى إليه فإنه قد أمرنى أن آتيه بك.

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى وصل إلى جيش أبرهة، فسأل عن (ذى نفر)؛ لأنه كان صديقًا له، فعلم أنه محبوس عند أبرهة، فلما دخل عليه قال له: يا ذا نفر هل عندى حيلة نتخلص بها من أبرهة؟

فقال ذو نفر: وهل أملك أى حيلة وأنا رجل أسيرٌ عنده أنتظر أن يقتلنى فى أى وقت... لكنى أعرف شابًّا طيبًا اسمه: أنيس وهو سائس الفيل، فسوف أرسل إليه وأوصيه بك وأعرفه قدرك ومكانتك وأطلب منه أن يستأذن لك لتدخل على أبرهة وتكلمه وسأجعله يشفع لك عند أبرهة بخير إن استطاع.

فقال عبد المطلب: يكفينى هذا يا صديقى.

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل والوحوش فى

رءوس الجبال، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت.

قال: أفعل.

فكلم أنيس أبرهة فقال له: أيها الملك! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة وهو الذى يُطعِم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال، فائذن له عليك، فليكلمك فى حاجته، فأذن له أبرهة قال: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يُجلسه معه على سرير مُلكه.

فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه، ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان... فقال: حاجتى أن يرد علىَّ الملك مائتى بعير أصابها لى، فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى.

أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو

دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه، لا تكلمنى فيه؟

فقال له عبد المطلب: إنى أنا ربُّ الإبل وإن للبيت ربًا يحميه..

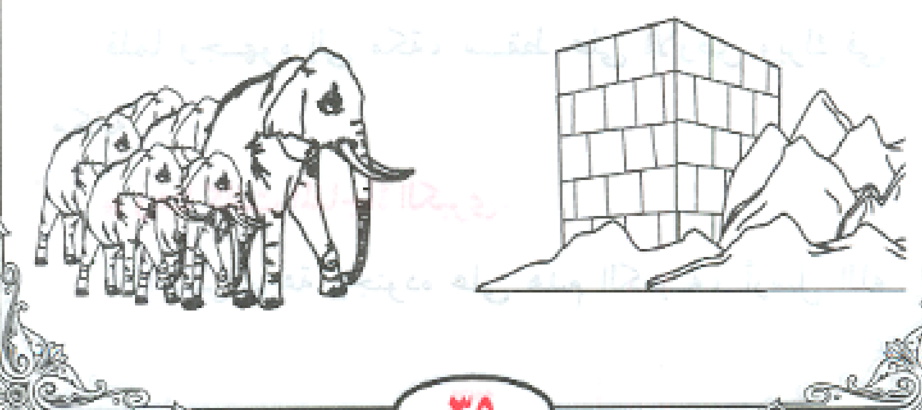
فقال أبرهة: لا يستطيع أحدٌ مهما كان أن يحمى البيت منى أبدًا.

فقال عبد المطلب: أنت وما تريد.

وهنا أمر أبرهة جنوده فردُّوا على عبد المطلب مائتى بعير.

* فلما خرج عبد المطلب، ذهب إلى قريش وأخبرهم الخبر وأمرهم أن يخرجوا فورًا من مكة وأن يتحصنوا فى رءوس الجبال.

* ثم قام عبد المطلب وأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفرٌ من قريش يدعون الله ويطلبون منه النصر على



أبرهة وجنده.

* فلما أصبح أبرهة، تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله المرعب وجيشه الكبير وكان اسم الفيل: (محمود).

فلما وجهوا الفيل إلى مكة، أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك محمود وارجع راشدًا من حيث أتيت، فإنك في بلد الله الحرام وأرسل أذنه. فبرك الفيل.. أي: سقط على الأرض.

* وهنا خرج نفيل بن حبيب يجري حتى صعد الجبل.

وأما أبرهة وجنوده فقد ضربوا الفيل؛ ليقوم من مكانه؛ فأبى فضربوا رأسه بالفأس ليقوم فأبى.

فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول ويجري..

ووجهوه إلى المشرق، فقام يهرول ويجري.

فلما وجهوه إلى مكة، سقط على الأرض وبرك في مكانه.

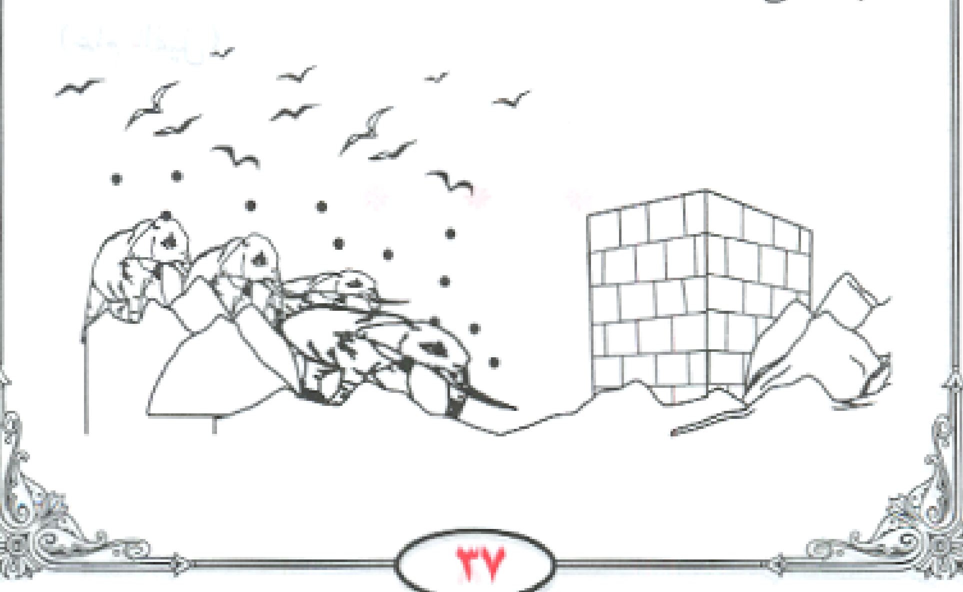
*** وهنا كانت المفاجأة الكبرى.**

لما أصر أبرهة وجنوده على هدم الكعبة، أرسل الله

عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف. . . مع كل طائر منهم ثلاثة حجارة يحملها. . . حجرٌ في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا أهلكته.

فخرجوا هاربين مرعوبين يبحثون عن الطريق ويسألون عن نُفيل بن حبيب؛ ليدلهم على الطريق إلى اليمن.

* وأُصيب أبرهة في جسده وخرجوا به تسقط أناملُهُ أنْملة أنْملة. . كلما سقطت أنملة، اتبعتها منه مِدَّة تسيل قيحًا ودمًا حتى وصلوا به إلى صنعاء، فانصدع صدره عن قلبه حتى مات.



* وأما أبو رغال الذى بعثته قبيلة ثقيف مع أبرهة ليدله على الطريق إلى مكة، فقد مات فى الطريق بمكان يقال له: (المغمس) فكان العرب يرجمون قبره بالحجارة بعد موته.

* وأما قائد الفيل وسائسه فقد أعمى الله أبصارهما فكانا يجلسان فى الطرقات بمكة يسألون الناس الطعام والشراب.

* وهذا كله جزاء من تعرض لهدم بيت الله الحرام.

فلقد حمى الله بيته الحرام؛ لأنه سيكون قبلة لسيد ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ الذى وُلد فى نفس العام (عام الفيل).

* * *

ميلاد النبى ﷺ

كان أهل الكتاب يتحدثون فيما بينهم كثيرًا عن أن نبيًا قد اقترب ظهوره... وقد كان الرسل فيما مضى يتتابعون ولا يكاد الناس يعيشون في عصر من العصور بلا نبي أو رسول.

ولكن الأمر تغير بعد عيسى (عليه السلام) فقد مرّ حوالى ستمائة عام من بعد رفعه إلى السماء ولم يأتِ نبيٌّ جديد... فكان الكل ينتظر قدوم النبي الجديد.. وبخاصة بعد أن امتلأت الأرض بالمفاسد والضلالات فقد ازدادت الحاجة إلى مبعث نبى آخر الزمان ﷺ.

* وفى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول وُلد الحبيب المصطفى ﷺ فى دار أبى طالب بشِعب بنى هاشم وذلك فى عام الفيل. فكان ميلاده بمثابة الشمس التى أضاءت الكون كله بنور الإيمان والتوحيد.

* ولكي تعـرف أن النبي ﷺ هو نور أرسـله الله للكون كله لينيـر قلوبهم بنور الإيمان فلقـد رأت أمه آمنة حين ولدته نورًا يخرج منها أضاءت منه قصور الشام.

قال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»(١).

ودعوة إبراهيـم عليه السلام هـي قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢).

وبشرى عـيسى. كما أشار إلـيه قوله عز وجل حـاكيًا عن المسيح عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(٣).

وقوله: «ورأت أمي كأنه خرج منهـا نور أضاءت منه قصور الشام».

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٦٧١٢) مـسند الشاميين، وصححه العلامـة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٥٤٥).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٢٩).

(٣) سورة الصف: الآية: (٦).

قال ابن رجب: «وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزال به ظلمة الشرك منها، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١).

استبشار عبد المطلب بميلاد حفيده المبارك

ولما وُلد النبي ﷺ كانت أول من أرضعته ثُويبة جارية عمه أبي لهب ثم أقبلت أُمه آمنة بنت وهب عليه وضمته إلى صدرها الحنون.

وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية، وأم أيمن هذه كانت وصيفةً لعبد الله بن عبد المطلب، فلما ولدت آمنةُ محمدًا ﷺ بعدما توفي أبوه، كانت أم أيمن تحضنه

(١) سورة المائدة: الآيتان: (١٥-١٦)

حتى كَبُرَ النبى ﷺ فأعتقها ثم أنكحها زيد بن حارثة، فولدت له أسامة، وقد توفيت بعدما توفى النبى ﷺ بخمسة أشهر.

* المهم أنه لما وُلد النبى ﷺ أرسلت أمه آمنة إلى جده عبد المطلب لتبشره بقدوم حفيده فجاء مستبشرًا وأخذه ودخل به الكعبة ودعا الله وشكر له وقال: سأسميه محمدًا حتى يحمده أهل السماء وأهل الأرض وكانت فرحته شديدة بقدوم النبى ﷺ فقد كان يرى فى مَقدمه عوضًا عن ابنه عبد الله الذى مات فى ريعان الشباب.

* وأُعدت الموائد وعمَّت الأفراح فقد كانت فرحة الناس بقدوم النبى ﷺ فرحة كبيرة فهو ابن الذبيحين: إسماعيل جده الأكبر وعبد الله والده... وكان النبى ﷺ سببًا فى نشر السعادة فى هذا الكون منذ أول لحظة جاء فيها إلى هذا الكون.

* * *

قصة رضاع الحبيب ﷺ

لقد كان من عادة العرب فى هذا الزمان أن الطفل إذا وُلد فإنهم يرسلونه إلى البادية فى الصحراء ليقضى مدة الرضاعة هناك فينشأ قويًا شديدًا فصيحًا فى اللغة العربية عالمًا بفنون الرمى بالرمح والنبل.

فكانت الأم إذا ولدت فإنها ترسل وليدها إلى إحدى المرضعات فى البادية لتُرضعه وتربيه ثم تعيده إليها مرة أخرى.

* وفى هذا العام حدث جَدبٌ وقحطٌ شديد فى بادية بنى سعد بن بكر فقد انقطع عنها المطر منذ شهور حتى أُصيبت الأرض بالجفاف وأصبحت أكثر الأغنام هزيلة ضعيفة.

* فجاءت مجموعة من النساء من بنى سعد بن بكر من أجل أن تحصل كل واحدة منهن على طفلٍ من بيتٍ غنى حتى تُرضعه وتحصل على المال الذى يعوضها عن

خسارة الجدب والجفاف الذى حلَّ ببلادهم.

* وكان من بين هؤلاء النسوة حليمة السعدية التى خرجت لتبحث عن طفل من بيت غنى حتى ترضعه وتحصل على المال الذى يعوضها عن تلك الخسائر.

وكانت حليمة تركب على حمارة هزيلة ضعيفة لا تستطيع المشى إلا ببطءٍ شديد.. فكان ذلك سببًا فى أن كل النساء سبقنها إلى مكة وحصلت كل واحدة منهن على طفلٍ رضيع من بيتٍ غنى ولقد عُرِض النبى ﷺ على كل النساء فرفضن أن يأخذنه لأنه يتيم... فكانت كل واحدة تقول: إذا أخذت هذا الطفل اليتيم فمن الذى يعطينى المال ويكرمنى بالهدايا.

* وأخيرًا وصلت حليمة إلى مكة بعد عناءٍ شديد ولم تجد إلاَّ النبى ﷺ فرفضت فى بداية الأمر لأنه يتيم وخشيت ألا تجد من يدفع لها ثمن الرضاعة... وكانت حليمة تحمل فى حجرها ابنها الصغير وتحاول أن تُرضعه فلم تجد فى صدرها إلا لبنًا قليلاً فقد تأثر جسدها بالجفاف

والقحط الذى حَلَّ بيلادها.

* وكان النبى ﷺ فى تلك اللحظة لم يرضع إلا مرة واحدة من صدر ثويبة خادمة عمه أبى لهب... واحتاج إلى أن يرضع مرة أخرى.

وفجأة سمعوا طرقًا على الباب فقد عادت حليمة لتأخذ هذا الطفل اليتيم المبارك لتُرضعه لأنها لم تجد غيره... وهى لا تعرف أنها ستُرضع أعظم طفل فى الكون كله.

* وأخذت حليمة هذا الطفل اليتيم المبارك محمد بن عبد الله ﷺ.. وعادت به إلى زوجها الذى كان قد جاء إلى مكة بحثًا عن أى عمل فلم يجد... وكانت حليمة قد أخبرته أنها ستأخذ هذا الطفل اليتيم عسى الله أن يجعل فيه الخير والبركة... وحتى لا تعود بلا طفلٍ تُرضعه فوافقها على ذلك.

فلما عادت إليه وأخرجت ثديها لتُرضع النبى ﷺ وكان صدرها منذ ساعات ليس فيه إلا لبنٌ قليل جدًا حتى

إن طفلها لم يشبع - وجدت صدرها قد امتلأ باللبن الكثير فتعجبت... وأخذ النبي ﷺ يرضع حتى شَبِعَ... ثم قامت حليمة وأرضعت ابنها حتى شبع هو أيضًا.

وبعد لحظات قام زوجها إلى الناقة التي كانت معه فوجد ضرعها قد امتلأ باللبن بعد أن كان ليس فيه قطرة لبن.. فحلبها وشرب هو وزوجته حليمة حتى شبعا في تلك الليلة.

فقال لزوجته حليمة: والله لقد أخذنا طفلاً مباركًا وإن الله سيُكرمنا بسببه غاية الإكرام.

* ولما حانت لحظة الرجوع إلى بادية بني سعد قامت حليمة لتركب حمارتها الضعيفة الهزيلة وهي مشفقه عليها فقد زاد حملها طفلاً آخر.. وإذا بها تجد أن الحمارة الضعيفة أصبحت قوية بل وسريعة... وبعد أن كانت النساء يسبقنها وهم في طريقهم إلى مكة وإذا بحليمة تسبقهم وهم في طريق العودة إلى بادية بني سعد.

* **فتعجبت النساء وقلن لحليمة:** يا حليمة ما الذى حدث لحمارتك فقالت: لقد حملت عليها غلامًا مباركًا.

* وعادت حليمة إلى بادية بنى سعد.. وما زال الجفاف والقحط يعم البلاد... فكانت تخرج بأغنامها بحثًا عن المرعى فترجع وقد شبعت أغنامها.. وترجع أغنام الناس جياعًا.

فكانوا يقولون: اذهبوا بغنمكم حيث تذهب أغنام حليمة حتى تشبع... فيذهبون معها فى نفس المكان فتعود أغنامها شباعًا وتعود أغنامهم جياعًا.

* وبعد فترة قصيرة نزلت الأمطار وخرج الزرع والنبات وعمّت البركة فى كل مكان بقدوم هذا الطفل المبارك.

* وكان النبى ﷺ يَكْبُرُ بسرعة كبيرة... فكان يشب فى اليوم شباب الغلام فى الشهر ويشب فى الشهر شباب الغلام فى السنة.

وما هى إلا سنتان حتى صار هذا الطفل المبارك كأنه

غلام كبير حتى جاوز السادسة من عمره.

وكانت حليمة قد أحبته حبًا شديدًا وكانت لا تتحمل فراقه أبدًا... فقد كانت تحمله معها إلى المرعى الذى ترعى فيه أغنامها فإذا بأغنامها قد امتلأ ضرعها باللبن.

* ولما بلغ النبى ﷺ سنتين أخذته حليمة إلى مكة وهى فى غاية الحزن لفراقه.. فلما وصلت إلى أمه آمنة قالت لها: والله ما رأيت صبيًا أعظم بركة منه وإنى أخشى عليه من الأمراض التى تنتشر فى مكة فدعيه يبقى معى عامًا آخر وسأرده لك بعدها مباشرة... وبعد إلحاحٍ شديد وافقت أمه على أن تأخذه حليمة مرة أخرى وعادت به حليمة إلى بادية بنى سعد وهى فى قِمَةِ السعادة والسرور لرجوع النبى ﷺ معها مرة أخرى.

* * *

حادثة شق الصدر

وفي يوم من الأيام خرج النبي ﷺ ومعه أخوه من الرضاعة - ابن حليمة السعدية - وذهبا ليلعبا سويًا ونسيا أن يأخذا طعامًا فقال النبي ﷺ لأخيه: اذهب وائتنا بالزاد.

فذهب وأتى بالزاد... وبينما هما يلعبان إذ أقبل رجلان عليهما ثياب بيض فأخذا النبي ﷺ فأضجعاه وشقا بطنه يقول النبي ﷺ: «فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي، فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج، فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء بَرَد، فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسَّكِينة[١]، فذراها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خِطه، فخاطه وختم عليه بخاتم النبوة.

(١) السكينة: الطمأنينة والوقار.

فقال أحدهما لصاحبه: اجعله فى كفة، واجعل ألفًا من أمته فى كفة، .. قال النبى ﷺ: «فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقى، أشفق أن يخرَّ علىَّ [1] بعضهم، فقال المَلَك: لو أن أمته وُزنت به لمال بهم، ثم انطلقا وتركانى»[2].

* فلما رأى ذلك أخوه فزع وخاف خوفًا شديدًا وعاد إلى أمه حليمة مسرعًا وقد تغير لونه.

فقالت له أمه: مالك يا بُنى.

فحكى لها كل ما رآه... فخرجت حليمة هى وزوجها وهما فى غاية الخوف على محمد ﷺ فوجداه قائمًا قد تغير لونه فلما رآهما أجهش بالبكاء.. فأخذته حليمة فى حضنها وسألته: ما الذى حدث لك؟ فحكى لها كل ما حدث.

فقال زوجها: والله إنى أخشى أن يكون قد أُصيب بمكروهٍ فهيا لنرده إلى أهله قبل أن يحدث له شىء فيظن

---

(1) يخر: يسقط.

(2) حسن: رواه الدارمى (13) فى مقدمة سننه، وأحمد (17196) مسند الشاميين، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (373).

الناس أننا قد أهملنا رعايته.

فذهبا به إلى أمه آمنة... فلما رأتهم آمنة تعجبت وقالت: ما الذى أتى بكما قبل أن أطلبه منكما وقد كنتما حريصين كل الحرص على بقائه عندكما.

فقالت حليمة: لا شيء سوى أنه قد أتم فترة الرضاعة منذ زمن فأحببنا أن نرده إليكم قبل أن يُصاب بمكروه.

فقالت: إنه قد حدث شيء ولابد أن تخبرينى يا حليمة.

فأخبرتها حليمة بما حدث... فتبسمت أم النبى ﷺ وقالت: كلا والله، لا يصنع الله ذلك له، إن لابنى شأنًا، أفلا أخبركما خبره، إنى حملت به، فوالله ما حملت حملاً قط كان أخف علىّ منه، ولا أيسر منه، ثم رأيت حين حملته خرج منى نور أضاء منه أعناق الإبل ببُصرى ثم وضعته حين وضعته، فوالله ما وقع كما يقع الصبيان، لقد وقع معتمدًا بيديه على الأرض رافعًا رأسه إلى السماء فدعاه عنكما فقبضته وانطلقنا».

فراق مؤلم

وانصرفت حليمة رضي الله عنها وقد امتلأ قلبها حزنًا وأسى على فراق الحبيب ﷺ ودموعها تسيل على خدها.

ولكنها كانت تشعر في قرارة نفسها أن الله (عز وجل) سيجمع بينها وبين الحبيب ﷺ وأنها ستراه مرة أخرى.

وفاة أمه (عليه الصلاة والسلام)

أخذت آمنة طفلها المبارك واحتضنته وأغدقت عليه حبًا وحنانًا فهي تشعر أنه خير غلام أنجبته أرض العرب.

* وفي يوم من الأيام أخذته أمه لزيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار بعد أن استأذنت من جده عبد المطلب الذي كان لا يطيق فراق حفيده أبدًا.. وكان النبي ﷺ قد بلغ السادسة من عمره.

* فخرجت آمنة متجهة إلى يثرب (المدينة المنورة) ومعها ابنها المبارك ومعها أم أيمن (جارية عبد المطلب).

ولما وصلوا يثرب ورآه أخواله فرحوا به فرحًا شديدًا ولم يأذنوا لأمه بالعودة إلا بعد إلحاح شديد.

* وفى طريق العودة من يثرب إلى مكة... وفى مكان بين مكة والمدينة اسمه الأبواء أحست آمنة بآلام شديدة أوقفتها عن المسير... ونظر محمد ﷺ إلى أمه فإذا هي فى النزع الأخير فنزفت دموعه وهو يرى أمه تموت أمام عينيه.

ومـاتت أمه بالأبواء ودُفنت هناك... فنظر النبى ﷺ إلى أم أيمن وبكى وقال لها: يا أم أيمن أنت أمى بعد أمى.

* يا له من موقف مؤثر... ها هو النبى ﷺ يفقد أمه بعدما فقد أباه وهو جنين فى بطن أمه.

* وها هو فى هذه اللحظة الحزينة يصبح بلا أب ولا أم وهو الطفل الصغير الذى لم يتجاوز السادسة من عمره.

* وفى هذه اللحظة احتضنته أم أيمن ودموعها على

خديها وعادت به إلى مكة وتوجهت به إلى بيت جده عبد المطلب الذى احتضن حفيده وبكى بعدما علم ما حدث له.

* وأوقفت أم أيمن حياتها كلها لرعاية النبى ﷺ.. فغمرته بعطفها وحبها وحنانها... وكان جده يقربه إليه ويحبه حبًا شديدًا.

وهكذا عوَّضه الله بحنان جده وحاضنته أم أيمن عن حنان الوالدين وكان عبد المطلب يخاف عليه خوفًا شديدًا فكان يوصى أم أيمن ويقول لها: لا تغفلى لحظة واحدة عن محمد ﷺ.

فكان رسول الله ﷺ مع جدّه عبد المطلب بن هاشم، وكان يُوضَع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة، فكان بَنُوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحدٌ من بنيه إجلالاً له. قال: فكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب، إذا رأى ذلك

منهم: دعوا ابنى، فوالله إن له لشأنًا؛ ثم يُجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

وفاة جده عبد المطلب

وبعد فترة يسيرة نام عبد المطلب على فراش الموت...

وقد كان يتمنى أن يعيش طويلاً من أجل أن يرعى حفيده المبارك ﷺ.

ولكن جاءت اللحظة الحاسمة ومات عبد المطلب جد النبى ﷺ وكان النبى ﷺ يبلغ من العمر ثمان سنوات.

وكان عبد المطلب قد أوصى ابنه أبا طالب فى اللحظات الأخيرة أن يكفل محمدًا ﷺ ويرعاه... فلما مات عبد المطلب كفل أبو طالب النبى ﷺ وأخذه إلى بيته ليعيش مع أولاده..

* * *

وعرفت البركة طريقها إلى هذا البيت

كان أبو طالب فقيراً وكانت زوجته تشعر بأن أولادها لا يشبعون من الطعام أبدًا فلما عاش الحبيب ﷺ بينهم دخلت البركة لأول مرة في هذا البيت الكريم وبخاصة فى طعام الأولاد إذا أكل معهم الحبيب ﷺ .

* فكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعًا أو فُرادى لم يشبعوا وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أن يُغذيهم أو يُعشيهم يقول: كما أنتم حتى يأتى ابنى، فيأتى رسول الله ﷺ فيأكل معهم فيفضل من طعامهم.

وإن كان لبنًا شرب رسول الله ﷺ أولهم، ثم تناول القعب - القدح - فيشربون منه، فيروون عن آخرهم من القعب الواحد، وإن كان أحدهم ليشرب قعبًا وحده، فيقول أبو طالب. إنك لمبارك.



ويزداد الحب يومًا بعد يوم

وكانت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها ترى كل هذه البركات التي دخلت بيتها لأول مرة وهي لا تكاد تصدق نفسها فكانت تزداد حبًا للنبي ﷺ يومًا بعد يوم حتى كان الحبيب ﷺ يشعر بأن الله رزقه بتلك الأم الرحيمة ليعوضه عن موت أمه.. فها هي ترعاه في طفولته وشبابه وتخصه بالتقدير والاحترام وتشمله بعطفها وحنانها... وظلت ترعاه إلى أن تزوج بخديجة رضي الله عنها.

ونشأ الحبيب ﷺ بين ينبوع الرحمة ونهر الحنان فاطمة بنت أسد وأم أيمن رضي الله عنهما فكانت كل واحدة منهما ترعاه وتخصه بالرحمة والحنان وكأنها أمه التي ولدته.



النبى ﷺ يرعى الغنم

وكان النبى ﷺ ينظر إلى حال عمه أبى طالب الذى كان فقيرًا صاحب عيالٍ فأراد أن يساعده ويخفف عنه الحمل الثقيل. . . فقرر أن يبحث عن عملٍ ليساعد به عمه.

ويبدأ النبى ﷺ فى رعى الأغنام ليساعد عمه وليرد إليه شيئًا من المعروف الذى أسداه إليه.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم».

فقال أصحابه: وأنت؟

فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[1].

❋ ❋ ❋

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٢٦٢) كتاب الإجارة.

قصة بحيرا الراهب

لقد كـان أبو طالب يحب النبى ﷺ أكثر من حبه لأولاده وكان لا يُطيق فراقه لحظة واحدة.

وفى يوم من الأيام أراد أبو طالب أن يخرج إلى الشام فى تجارة له فلم يستطع أن يسافر وحده ويترك محمدًا ﷺ . . . فأخذه معه فى رحلته إلى الشام.

وكان فى الطريق تنتشر صوامع الرهبان الذين كانوا يعرفون صفة نبى آخر الزمان فقد قرءوا صفته فى التوراة والإنجيل.

وكان من بين هؤلاء الرهبان رجل اسمه (بحيرا) وكان رجلاً صالحًا يعرف صِفةَ النبى ﷺ .

ونظر بَحِيرا إلى القافلة التى قدم فيها أبو طالب ومحمد ﷺ فإذا به يَرى غَمامة (١) فى السماء تُظلل محمدًا ﷺ وتَسير معه أينما سار، وهذه عَلامةٌ من

(١) سحابة.

عَلامات نبى آخر الزَّمان، وأراد «بَحيرا» التأكد من هذا النبى، والنظر فى وجهه، فصنع طَعامًا، ودعا القافلة جميعًا للأكل، فقالوا:

- يا بحيرا كنا نمر عليك فلم تصنع لنا طعامًا، فلماذا هذه المرة؟!

- **قال:** بل أنتم ضُيوفى، فلتأتوا جَميعًا ولا يتخلف منكم أحد.

وجاءوا جميعًا إلا رسول الله ﷺ فنظر بحيرا فلم يجده، فقال: هل جئتم جَميعًا؟

قالوا: نعم، إلا غُلامًا صَغيرًا، اسمه مُحمد جعلناه فى رِحَالِنا.

فقال: إذن، ليذهب أحدكم وَليأتنى به.

وحضر محمد ﷺ، وجلس للطعام مع قَومه فلما فَرَغَ القومُ من الطَّعام، وبقى بحيرا ومحمد ﷺ وحدهما.

قال بحيرا: يا غلامُ أسْتَحلِفُك باللاتِ والعُزَّى، أن

تُجيبني عمّا أسألك عنه قال: لا تَسألني باللات والعزى شيئًا، فوالله إني لأَكْرَهُهُمَا.

فقال: إذن أسألك بالله.

قال: اسأل عمّا بَدَا لَك.

فراح بحيرا يسأله عن أمور نومه، وطَعامه، حتى كشف عنه كَتِفَه؛ فرأى خاتم النُّبوة على كَتِفه، وهو بعض شَعَرَاتٍ بين كتفيه، ثم انصرف رسول الله ﷺ.

فقال بحيرا لأبي طالب: مَن هذا الغُلام؟ فقال: ابني.

قال بحيرا: لا، ما هو بابنك، ولكن ينبغي أن يكون أبواه قد ماتا.

قال أبو طالب: نعم، مات أبوه وأمه حُبْلى[1]، وماتت أمه.

فقال بحيرا: صَدَقت، فارجع بابن أخيك إلى بلدك، واحذر عليه اليهود، فلو عَرَفُوه ليقتلونه.

---

(١) حُبْلَى: اي حامل.

وعاد أبو طالب إلى مكة.

وقد تأكد أن لابن أخيه شأنًا بين الناس جَميعًا، وما زالت كلمات بَحِيرا في أُذنه: «احذر عليه اليهود»(١).

الله يعصم نبيه ﷺ من أقذار الجاهلية

وفي ظل الجاهلية التي كان يعيشها أكثر أهل مكة كان النبي ﷺ نشأ نشأة كريمة فلم يشاركهم في أي شيء يُغضب الله (عز وجل).

* فمن ذلك أن النبي ﷺ لم يسجد لصنم من الأصنام أبدًا.

* ولم يأكل أبدًا من تلك الذبائح التي كانوا يذبحونها لتلك الأصنام.

* ومن ذلك أن الله (عز وجل) حفظه من أن تبدو عورته أو يظهر عُريانًا... ففي يوم من الأيام كان النبي ﷺ يشارك في نقل الحجارة لبناء الكعبة فقال له عمه

(١) حياة محمد ﷺ للأطفال / أ. حامد أحمد (ص:٣٨-٤٠).

العباس: اجعل إزارك على رقبتك حتى يقيك من الحجارة.. ففعل ذلك فسقط على الأرض ونظر إلى السماء ثم أفاق وهو يقول: إزارى إزارى فشدَّ عليه إزاره ولم يرَ أحدٌ عورته ﷺ.

* ومن ذلك أنه لم يستمع لصوت المزامير والمعازف.

ففى يوم من الأيام قال النبى ﷺ لفتًى كان معه من قريش بأعلى مكة فى أغنام لأهله يرعاها: «احفظ لى غنمى حتى أذهب إلى مكة فألهو كما يلهو الفتيان..» فقال له: نعم.

يقول النبى ﷺ: «فخرجت ووصلت إلى أقرب دار من دور مكة وسمعت الغناء يخرج من تلك الدار فقلت: ما هذا؟»

قالوا: فلان تزوج فلانه.

وفجأة نام النبى ﷺ ولم يوقظه إلا حرُّ الشمس... نام النبى ﷺ ولم يستمع إلى تلك المزامير والمعازف... فعاد إلى غنمه مرة أخرى وأخبر الفتى الذى كان يرعى له الغنم بما حدث.

ثم قال له فى الليلة الأخرى مثلما قال له فى المرة

الأولى وذهب ليستمع إلى المزامير والمعازف فحدث له ما حدث فى المرة الأولى فلم يعد إلى اللهو مرة أخرى.

يقول النبى ﷺ : «فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمنى الله بنبوته».

حرب الفجار

وكانت الحروب فى أرض الجزيرة لا تهدأ أبدًا.

بل الأعجب من ذلك أن تلك الحروب كانت تقوم لأتفه الأسباب.

* وكان من بين تلك الحروب (حرف الفجار) التى كانت بين قريش وبين قبيلة أخرى تسمى (قَيس عَيلان).

وسُميت تلك الحرب بحرب الفجار لأنها كانت فى الأشهر الحُرم ولأنهم استحلوا فيها الكثير من حُرمات مكة التى كانت مقدمة عند العرب.

* وكادت (قيس عيلان) أن تُهزم هزيمة منكرة لولا أنه

تدخل بعض الناس للصلح بينهم على أن يحصوا عدد القتلى من الفريقين فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية العدد الزائد من القتلى.. فكان لقيس زيادة فى القتلى فأخذوا ديتها من قريش.

* وكان النبى ﷺ فى تلك الحرب قد بلغ العشرين من عمره.. ولم يقاتل فيها بل كان يجمع النبال التى يرميها أعداؤهم ثم يعطيها لأعمامه.

* ولم يقاتل النبى ﷺ لأنها كانت حرب فجار وكانوا كُفارًا ولم يأذن الله لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هى العُليا.

* * *

حلف الفضول

وفي يوم من الأيام حدث في مكة شيء عجيب يدل على أن الحياة مهما كانت سوداء فلابد من وجود بريق من الأمل.

* فقد جاء رجل إلى مكة من أجل أن يتاجر في بعض السلع التجارية فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي - والد عمرو بن العاص - ووعد الرجل بأن يعطيه الثمن ولكنه نقض العهد ولم يعطه ماله.

فأخذ الرجل يبحث عن أي أحد من سادة قريش ليرد إليه حقه ولكن لم ينصره أحد فصعد الرجل على جبل أبي قُبيس بمكة ونادى على أهل مكة من أجل أن ينصروه على العاص بن وائل فقام الزبير بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وجمع قريشًا في دار رجل اسمه (عبد الله بن جُدعان).

وبعد مناقشات طويلة تحالفت قريش فيما بينها على أن يكونوا يدًا واحدة على كل ظالم حتى يأخذوا منه الحق للمظلوم.

وتحالفوا أيضًا على أن يتقاسموا بعض أموالهم مع الفقراء حتى لا يبقى فى مكة فقير واحد.

* ومن شدة إعجاب النبى ﷺ بحلف الفضول ومبادئه السامية كان لا ينسى هذا الحلف أبدًا.. وظل يذكره بعد البعثة النبوية ويقول: «لقد شهدتُ فى دار عبد الله بن جُدْعان حِلفًا لو دُعيت إليه فى الإسلام لأجبت، تحالفُوا أن يَرُدُوا الفُضول على أهلها، وألا يَعْدُ(1) ظالم مظلومًا».

* * *

(1) يظلم.

مكانة النبى ﷺ بين قومه

لقد كان النبى ﷺ فى خير قبيلة وأشرف نسب.. وهكذا الأنبياء يكونون أشرف الناس نسبًا وأكمل الناس خَلقًا وخُلقًا.

لذا سأل هرقل أبا سفيان بن حرب عن نسب النبى ﷺ فقال: «كيف نسبه فيكم».

فقال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب.

ثم قال: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث فى نسب قومها»[1].

* وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن الله - عزَّ وجلَّ - اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم»[2].

---

(١) أخرجه البخارى (١/٤٢) بدء الوحى.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧٦) كتاب الفضائل.

قال رسول الله ﷺ : «أيها الناس مَن أنا؟ قالوا: أنت رسول الله ﷺ قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إلا أن الله - عزّ وجلّ - خلق خلقه، فجعلني من خير خلقه، ثم فرقهم فرقتين، فجعلني من خير الفرقتين، ثم جعلهم قبائل، فجعلني من خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتًا فجعلني من خيرهم بيتًا، وأنا خيركم بيتًا، وخيركم نفسًا»(1).

* بل لقد كان الحجر يعرف قدر النبي ﷺ فكان يسلم عليه قبل البعثة.

فعن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ : «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلم عليَّ قبل أن أُبعث إني لأعرفه الآن»(2).

* * *

(1) رواه أحمد والترمذي وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (1472).

(2) صحيح: رواه مسلم (2277) كتاب الفضائل.

زواج النبى ﷺ من خديجة رضي الله عنها

كان النبى ﷺ قد عُرف فى مكة بأنه الصادق الأمين.. حتى أنه كان كثير من سادة قريش يضعون أموالهم وأماناتهم عند النبى ﷺ ومنهم من كان يعطيه ماله ليتاجر به ويعطيه على ذلك جزءاً من الربح... فكان النبى ﷺ يأخذ الربح ليساعد به عمه أبا طالب.

* وكان هناك فى مكة امرأة عاقلة اسمها خديجة بنت خويلد وكانت امرأة غنية تتاجر بمالها... فقد كانت تزوجت قبل ذلك برجلٍ غنى فمات فترك لها مالاً كثيراً ثم تزوجت برجلٍ آخر فمات وترك لها مالاً وفيراً... فكانت تستأجر الرجال للعمل فى تجارتها.

ومن المعلوم أنهم كانوا يعيشون فى فترة جاهلية شديدة... فمن المؤكد أنها قد تعرضت للسرقة أكثر من مرة.

* **فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها:** من صدق

حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج فى مالٍ لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، مع غلام لها يقال لهُ ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج فى مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام.

فنزل رسول الله ﷺ فى ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة، فقال له: من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى.

ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التى خرج بها، واشترى ما أراد أن يشترى، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة إذا اشتد الحرُّ يرى ملكين يظلانه من الشمس، وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت البضاعة التى جاء بها من الشام فأصبح ربحها مضاعفًا... ولم يحدث فى أى رحلة

تجارية أن ربحت خديجة مثل هذا الربح فسألت غلامها ميسره فأخذ يحدثها عن أخلاق النبى ﷺ وصدقه وأمانته.

بل أخذ يحدثها عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه.

* فذهبت خديجة إلى ابن عمها (ورقة بن نوفل) وكان نصرانيًّا قد قرأ كتب أهل الكتاب وعرف صفات نبى آخر الزمان.. فبشرها بأن هذه هى صفاته وأنه سيكون نبى آخر الزمان.

* اجتمعت الدلائل عند خديجة أن محمدًا سيكون نبى آخر الزمان فباتت ترجو أن يكون زوجًا لها... ولكن كيف ذلك وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وهى فى الأربعين من عمرها.

ومع ذلك لم تيأس لأنها كانت غنية وجميلة وكان كثير من الرجال يرغبون فى الزواج منها ولكنها كانت ترفض لأنها كانت ترى حرصهم على مالها.. وفى نفس

الوقت لم تجد الرجل المناسب الذى ترضى أخلاقه ورجولته.

لكنها لما رأت محمدًا ﷺ عرفت أنها لن تجد مثله أبدًا.

* وجلست فى حيرة تفكر كيف تفوز بزواجها من محمد ﷺ.

وفى غمرة الحيرة والاضطراب تدخل عليها صديقتها نفيسة بنت منبه، وتجلس معها تبادلها أطراف الحديث حتى استطاعت أن تكشف السر الكامن المرتسم على مُحياها وفى نبرات حديثها.

وهدأت نفيسة من روع خديجة وطمأنت خواطرها، وذكرت بأنها ذات الحسب والنسب والمال والجمال، واستدلت على صدق قولها بكثرة الطالبين لها من أشراف الرجال.

وما إن خرجت نفيسة من عند خديجة حتى انطلقت إلى النبى ﷺ وكلمته أن يتزوج الطاهرة خديجة،

وقالت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج فقال - عليه الصلاة والسلام -: «ما بيدى ما أتزوج به».

قالت: فإن كُفيت ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة فهل تجيب؟

فردَّ متسائلاً: ومن؟

قالت على الفور: خديجة بنت خويلد.

فقال: إن وافقت فقد قبلت.

وانطلقت نفيسة لتزف البشرى إلى خديجة، وأخبر - عليه الصلاة والسلام - أعمامه برغبته فى الزواج من خديجة، فذهب أبو طالب وحمزة وغيرهما إلى عم خديجة عمرو ابن أسد، وخطبوا إليه ابنة أخيه، وساقوا إليه الصداق.

فى ذلك المجلس اللطيف، قام أبو طالب يخطب.

ولما تم العقد نُحرت الذبائح، ووُزعت على الفقراء، وفُتحت دار خديجة للأهل والأقارب.

* وانتشر الخبر فى مكة كلها أن الصادق الأمين قد

تزوج خديجة.

* وعاش النبى ﷺ مع خديجة أجمل أيام حياته ورزقه الله منها الأولاد فقد أنجبت له: القاسم وعبد الله ورقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة ولكن القاسم مات ومات عبد الله فاحتسبه النبى ﷺ ورضى بقضاء ربه ولم يعترض.

* وبهذه المناسبة.. تعالوا لنتعرف سريعًا على أزواج النبى ﷺ وأولاده.

* * *

أزواج النبى ﷺ (أمهات المؤمنين)

أولاهن خديجة بنت خُويلد القرشية الأسدية، تزوجها قبل النبوة، ولها أربعون سنة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت، وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم، وهى التى آزرته على النبوة، وجاهدت معه، وواسته بنفسها ومالها، وأرسل الله إليها السلام مع جبريل، وهذه خاصة لا تُعرف لامرأة سواها، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين.

ثم تزوج بعد موتها سودة بنت زمعة القرشية، وهى التى وهبت يومها لعائشة.

ثم تزوج بعدها أمَّ عبد الله عائشة الصدِّيقة بنت الصدِّيق، المُبرأة من فوق سبع سماوات، حبيبة رسول الله ﷺ عائشة بنت أبى بكر الصديق، وعرضها عليه الملَك قبل نكاحها فى قطعة من حرير وقال: «هذه زوجتك»[1] ... تزوج بها فى شوال وعمرها ست

(١) أخرجه البخارى (١٢/ ٣٥٢) فى التعبير، ومسلم (٢٤٣٨).

سنين، وبَنَى بها فى شوال فى السنة الأولى من الهجرة وعمرها تسع سنين، ولم يتزوج بكرًا غيرها، وما نزل عليه الوحى فى لحاف امرأة غيرها، وكانت أحب الخلق إليه.

ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما... وذكر أبو داود أنه طلقها، ثم راجعها (١).

ثم تزوج زينب بنت خزيمة بن الحارث القيسية، من بنى هلال بن عامر، وتوفيت عنده بعد ضمِّه لها بشهرين.

ثم تزوج أم سلمة هند بنت أبى أمية القرشية المخزومية، واسم أبى أمية حذيفة بن المغيرة، وهى آخر نسائه موتًا.

ثم تزوج زينب بنت جحش من بنى أسد بن خزيمة وهى ابنة عمته أميمة، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾(٢) وبذلك كانت تفتخر على نساء

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه بإسناد صحيح.

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (٣٧).

النبى ﷺ، وتقول: زوَّجكن أهاليكن، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات[1].

ومن خواصها أن الله سبحانه وتعالى كان هو وليها الذى زوَّجها لرسوله من فوق سماواته، وتوفيت فى أول خلافة عمر بن الخطاب. وكانت أولاً عند زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ تبناه فلما طلقها زيد، زوَّجه الله تعالى إياها لتتأسى به أمته فى نكاح أزواج من تبنوه - وبخاصة وأن الإسلام أبطل التبنى بعد ذلك -.

وتزوج ﷺ جويرية بنت الحارث وكانت من سبايا بنى المصطلق، فجاءته تستعين به على كتابتها، فأدى عنها كتابتها وتزوجها.

ثم تزوج أم حبيبة، واسمها رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب القرشية الأموية وقيل: اسمها هند، تزوجها وهى ببلاد الحبشة مهاجرة، وأصدقها عنه النجاشى أربعمائة دينار، وسيقت إليه من هناك، وماتت فى أيام

(١) أخرجه البخارى (١٣/٣٤٧) التوحيد.

أخيها معاوية.

وتزوج ﷺ صفية بنت حُيي بن أخطب سيد بني النضير من ولد هارون بن عمران أخي موسى، فهي ابنة نبي، وزوجة نبي، وكانت من أجمل نساء العالمين، وكانت قد صارت له من السبي أمة فأعتقها، وجعل عتقها صداقها، ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية، وهي آخر من تزوج بها، تزوجها بمكة في عمرة القضاء بعد أن حل منها - أي بعد أن فكَّ إحرامه -.

❋ ❋ ❋

أولاد النبي ﷺ

* قال النووي رحمه الله :

كان له ﷺ : ثلاثة بنين: القاسم وبه كان يُكنى، وُلد قبل النبوة، وتوفي وهو ابن سنتين، وعبد الله وسُمي الطيب والطاهر، لأنه وُلد بعد النبوة والثالث: إبراهيم ولد بالمدينة سنة ثمان، ومات بها سنة عشر، وهو ابن سبعة عشر شهراً أو ثمانية عشر.

* وكان له أربع بنات:

زينت تزوجها أبو العاص بن الربيع وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد.

وفاطمة تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ورقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان بن عفان، تزوج رقية، ثم أم كلثوم، وتوفيتا عنده، ولهذا سُمي ذا النورين.

وكلهم من خديجة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية، وكلهم توفوا قبله إلا فاطمة، فإنها عاشت بعده ستة أشهر.

النبى ﷺ يشارك فى بناء الكعبة

قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾[1].

وعن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع فى الأرض قال: «المسجد الحرام. قلت ثم أى؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عامًا، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركت الصلاة فصلِّ، فإن الفضل فيه»[2].

* وقد اختلف أهل العلم فى أول من بنى الكعبة فمنهم من قال: أول من بناها الملائكة. ومنهم من قال: أول من بناها آدم عليه السلام. ومنهم من قال: أول من بناها إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام).

والراجح أن الكعبة كانت قبل إبراهيم وإسماعيل

(١) سورة آل عمران: الآية (٩٦).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٦٦) كتاب أحاديث الأنبياء، واللفظ له، ومسلم (٥٢٠) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

ولكنها هُدمت وبقيت القواعد فكان الذى رفع تلك القواعد إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[1].

* وكانت الكعبة - قبل مبعث النبى ﷺ - قد أوشكت على الانهيار... قيل: بحريق أصابها وقيل: بسيلٍ جارف وكان ذلك قبل بعثة النبى ﷺ بخمس سنوات على الراجح.

فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها، واتفقوا على أن لا يُدخلوا فى بنائها إلا طيبًا، فلا يدخلوا فيها مهر بَغىٍّ، ولا بيع ربًا، ولا مظلمة أحد من الناس، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومى وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصبه شيء، ولم يزالوا فى الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم، ثم أرادوا الأخذ فى البناء، فجزؤوا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءًا

(١) سورة البقرة: الآية: (١٢٧).

منها، فجمعت كل قبيلة حجارة على حده، وأخذوا يبنونها، وتولى البناء بنَّاء رومى اسمه باقوم، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه فى مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس فى أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى عرض عليهم أن يُحكِّموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداءً، فوضع الحجر وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده، فوضعه فى مكانه[1].

❋ ❋ ❋

(١) الرحيق المختوم (ص: ٥٩).

شمس النبوة تشرق على أرض الجزيرة

وفى تلك الفترة التى كانت قبل البعثة كان النبى ﷺ يعبد ربه على دين إبراهيم (عليه السلام).

ولما اقترب من سن الأربعين حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يذهب إلى غار حراء فى جبال مكة وكان يمكث شهر رمضان فى ذلك الغار يتعبد ويتفكر فى بديع خلق الله (جل وعلا).

* وفى هذا الوقت حدثت أشياء عجيبة... فقد كانت الشياطين تتجسس وتسمع أخبار السماء.. ولكنها الآن لا تستطيع ذلك فإن النجوم والشُّهُب تطارد كل شيطان يحاول أن يقترب ليعرف أخبار السماء فتحرقه وتقتله.

* وبدأ النبى ﷺ يحكى لخديجة أنه يرى ضوءاً ويسمع صوتًا فكانت خديجة تسأل ابن عمها ورقة بن

نوفل فيقول لها: إن يكن صادقًا فإن هذا الوحى الذى كان يأتى موسى (عليه السلام).. فإن بُعث وأنا حى سأنصره وأؤمن به.

* وكان النبى ﷺ فى تلك الفترة يرى الرؤيا الصادقة فى النوم.

وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

فكان يتزود بالطعام والشراب ويذهب إلى الغار ليتعبد ثم يعود بعد فترة ليتزود مرة أخرى.

* وبدأت أيام شهر رمضان المباركة تُطِلُ على أهل مكة وخرج النبى ﷺ كعادته إلى غار حراء ليتعبد لربه (جل وعلا) ويتأمل فى بديع خلق الله.

وبينما كان النبى ﷺ فى تلك الحالة الإيمانية الفريدة وإذا به فجأة يرى مخلوقًا لم ير مثله قبل ذلك أبدًا.

وبدأ يقترب من النبى شيئًا فشيئًا حتى جذبه بشدة وضمَّه بقوة وقال له: اقرأ.

فقال له النبي ﷺ: «ما أنا بقارئ». . . فقد كان النبي ﷺ أميًا لا يقرأ ولا يكتب.

فجذبه الملك وضمه بقوة مرة أخرى وقال له: اقرأ.

فقال النبي ﷺ: «ما أنا بقارئ».

ثم جذبه الملك للمرة الثالثة وضمه بقوة حتى تعب النبي ﷺ من ذلك تعبًا شديدًا فقال له الملك: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

ثم تركه الملك وعاد إلى السماء مرة أخرى بعد أن ترك النبي ﷺ خائفًا مرعوبًا قد تصبب العرق على جبينه وجسده.

* فأسرع النبي ﷺ عائدًا إلى خديجة وهو يقول: «زمّلوني زمّلوني»[2].

* فقامت خديجة لتغطية وتُهدئ من روعه.

---

(١) سورة العلق: الآيات: (١-٥).

(٢) أي: غطوني.

وبدأت خديجة تسأله عما حدث .. فأخبرها النبى ﷺ بما حدث ثم قال لها:

لقد خشيت على نفسى.

فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ[1]، وتكسب المعدوم[2]، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق[3]، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى (ابن عم خديجة)، وكان امرأ تنصّر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربى، فيكتب الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى، فقالت له خديجة:

يا ابن عمى اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخى ما ترى؟ فأخبره رسول الله

---

(١) تحمل الكل: تنفق على الضعيف واليتيم والعيال، والكل: أصله الثقل والإعياء.

(٢) تكسب المعدوم: تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق.

(٣) تعين على نوائب الحق: أى: إنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل.

ﷺ خبر ما رأى: فقال له ورقة:

هذا الناموس - أى جبريل أو الوحى - الذى نزّل الله على موسى، ياليتنى أكون شابًا قويًا عندما يُخرجك قومك.

فتعجب النبى ﷺ وقال: «وهل سيُخرجنى قومى؟».

فقال له ورقة: ما جاء رجل بمثل ما جئت به إلا عاداه قومه وأخرجوه ولو كنت قويًا فى ذلك الوقت لأنصرنَّك نصرًا قويًا[(١)].

* وعاد النبى ﷺ إلى بيته يفكر فيما قاله ورقة ابن نوفل فعلم أن الأيام تُخبئ له أحداثًا عظيمة.. ولكنه كان على يقين وثقة أن الله لا يخذله.

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤) كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٦٠) كتاب الإيمان.

وفاة ورقة بن نوفل

وبعد ذلك بفترة يسيرة مات ورقة بن نوفل الذى كان قد عاهد النبى ﷺ على أنه إن كان حيًّا فسوف ينصره ويؤمن به.

النبى ﷺ يرى جنة أو جنتين لورقة بن نوفل

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله: «لا تسبوا ورقة فإنى رأيت له جنة أو جنتين»(1).

* * *

(1) صحيح: رواه الحاكم (٢/ ٦٦٦، رقم ٤٢١١)، وابن عساكر (٦٣/ ٢٤)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٣٢٠).

حزن النبي ﷺ لفتور الوحي

عاد النبي ﷺ بعد ذلك إلى غار حراء لعله يرى الملك الذي نزل عليه قبل ذلك وقال له: اقرأ... لكن الملك لم يأتِ إليه مرة أخرى... ويمر اليوم وراء اليوم.. والنبي ﷺ ينتظر والملك لا يأتي.

فحزن النبي ﷺ على فتور الوحي وعدم نزول جبريل وخشي ألا ينزل عليه مرة أخرى.

وبينما هو عائد من الغار وإذا به يرى جبريل (عليه السلام) جالسًا على كُرسيه بين السماء والأرض فخاف منه النبي ﷺ وامتلأ قلبه رُعبًا من هول المنظر... وأسرع بالعودة إلى خديجة وهو يقول: زملوني زملوني.. فجاءه جبريل مرة أخرى وهو يقرأ عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[1].

* ففزع النبي ﷺ وقام من نومه فقالت له خديجة:

(1) سورة المدثر: الآيات: (1-5).

نم يا محمد واسترح.

فقال لها: لقد مضى عهد النوم يا خديجة.

الدعوة السرية

لما نزل على النبي ﷺ قول الله (جل وعلا): ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[1].

علم النبي ﷺ أنه تحمَّل مهمة شاقة ومسئولية كبيرة: وهى أنه لابد أن يقوم ليدعو الناس جميعًا إلى عبادة الله (جل وعلا) وإلى ترك عبادة الأصنام.

* وبدأت الدعوة إلى الإسلام سرًا.

وكان من الطبيعى أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على ألصق الناس به وآل بيته، وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه.

---

(١) سورة المدثر: الآيتان: (١-٢).

وفى مقدمتهم زوجة النبى ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه على بن أبى طالب - وكان صبيًا يعيش فى كفالة الرسول ﷺ[1].

* ودعا صديقه الذى هو موضع ثقته وأمين سره ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾[2].

أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فلم يتردد وكان أول داعية فى الإسلام، وكان ببركة إسلامه ودعوته ثلة مباركة دخلت فى الدين وكانت من السابقين الأولين وكان لها فى الإسلام أعظم بذل وبلاء، فرضى الله عنهم أجمعين... منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه ذو النورين، والزبير بن العوام وهو حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص خال المصطفى ﷺ، وطلحة بن عبيد الله، وكل هؤلاء الذين دخلوا الإسلام على يد أبى بكر من العشرة المبشرين

---

(١) الرحيق المختوم (ص:٧٢).

(٢) سورة التوبة: الآية: (٤٠).

رضى الله عنهم أجمعين[1] .

* فكان أول من أسلم من النساء خديجة رضي الله عنها .

وأول من أسلم من الرجال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه .

وأول من أسلم من الصبيان على بن أبى طالب رضي الله عنه .

وأول من أسلم من الموالى زيد بن حارثة رضي الله عنه .

* وبدأ النبى ﷺ يتوسع فى دعوته شيئًا فشيئًا حتى لا تعلم قريش بذلك فتبدأ فى إيذاء المؤمنين .

* ولما زاد عدد الذين أسلموا على الثلاثين اختار لهم الرسـول ﷺ دار أحـدهم (وهو الأرقم بن أبى الأرقم) ليلتقى بهم فى تلك الدار فيعلمهم ويرشدهم .

* واستمرت هذه المرحلة السرية قرابة ثلاث سنوات .

ثم نزل الوحى يكلف النبى ﷺ بأن يجهر بدعوته .

* * *

(١) وقفات تربوية / د . أحمد فريد (ص: ٦٧) .

الجهر بالدعوة

لقد جاء الأمر من الله (جل وعلا): ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]. . . فقام النبي ﷺ ليصدع بهذه الدعوة المباركة وأصبحت المواجهة حتمية بين المؤمنين والكافرين.

وأنذر عشيرتك الأقربين

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[2]. خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «يا صباحاه»[3]، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أنَّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟».

---

(١) سورة الحجر: الآية: (٩٤).

(٢) سورة الشعراء: الآية: (٢١٤).

(٣) يا صباحاه. كلمة ينادى بها للاجتماع لوقوع أمر عظيم.

قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا.

قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

قال أبو لهب: تبًّا لك ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(١)(٢).

* **وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:** قام رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(٣).

قال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئًا يا عباس ابن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئًا»(٤).

❋ ❋ ❋

(١) سورة المسد: الآية: (١).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩٧١) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٠٨) كتاب الإيمان.
(٣) سورة الشعراء: الآية: (٢١٤).
(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧٧١) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٠٦) كتاب الإيمان.

وفد قريش إلى أبى طالب

بدأ النبى ﷺ دعوته العلنيـة... وأخذ يعلم الناس أن تلك الأصنام التى يـعبـدونهـا لا تنفع ولا تضـر... وأخذ ينتظر قـدوم العرب إلى موسم الحج ليـدعوهم إلى الإسلام ويقول لهم: «قولوا لا إله إلا الله تفحلوا».

* وهنا بدأ المشركون يشعرون بخطر دعوة النبى ﷺ التى تُحرم عليـهم تجارة الأصنام وعبادتهـا.. وتُسوِّى بين السادة والعبيد وبين الغنـى والفقير.. فالناس فى ظل هذا الدين سـواء لا فضل لأحدٍ عـلى أحد إلا بالتـقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(1) فلا فضل لأحد على أحد بالمال أو الجاه أو السلطان أو القوة.

* وهنا قرر المشركون أن يواجهوا النبى ﷺ وأصحابه.

فذهبوا أولاً إلى عمه أبى طالب وقالوا له:

يا أبا طالب، إن ابن أخـيك قـد سب آلهـتنا، وعاب ديننا، وسفّـه أحـلامنا، وضلل آباءنا، فإمـا أن تكفه عنا،

(1) سورة الحجرات: الآية: (13).

وإما أن تُخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقًا، وردّهم ردًا جميلا فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يُظهر دين الله، فذهب الوفد مرة أخرى إلى أبى طالب، فقالوا له: يا أبا طالب: إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك عن ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك فى ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين.. ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسًا بتسليم رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه، فدعا أبو طالب رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن أخى: إن قومك قد جاؤونى فقالوا لى كذا وكذا فأبقِ علىَّ وعلى نفسك، ولا تُحملنى من الأمر ما لا أطيق، فقال عليه الصلاة والسلام: **«يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته»**، ثم استعبر رسول الله ﷺ، فبكى فلما ولى ناداه أبوطالب،

فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا»[1].

موقف جليل لأبي طالب وقومه

قال ابن إسحاق: ثم إن قريشًا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مَشَوا إليه بعُمارة بن الوليد ابن المُغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عُمارة بن الوليد، أشد فتًى في قريش وأجملهم، فخذه فلك عَقله ونصرُه، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل؛ فقال: والله لبئس ما تكلفونني أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٩).

النبى ﷺ يستمر فى دعوته

* قام النبى ﷺ يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان. . . وكانت زوجته خديجة تعينه وتثبته وتخفف عنه الآلام والأحزان وتساعده بمالها.

وكان عمه أبو طالب يؤازره وينصره ويحميه رغم أنه كان مشركًا ولم يؤمن. . لكنه كان يحب الرسول الله ﷺ حبًا جمًا.

* وأوحى الله إلى نبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[1].

فقام النبى ﷺ يبذل أقصى جهده فى الدعوة إلى الله وهو يعلم أن الله قد تعهد بحفظه من كيد المشركين وإيذائهم. . . فظل فى دعوته هذه حتى آخر لحظة فى حياته ﷺ.

(١) سورة المائدة: الآية: (٦٧).

إيذاء المشركين لأصحاب سيد المرسلين ﷺ

وهنا انفجرت مكة بمشاعر الغضب وبدأت تُسلط على أصحاب الرسول ﷺ أشد أنواع العذاب فاستباحوا دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

ما حدث لأبي بكر رضي الله عنه

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غُشي عليه، فقام أبو بكر رضي الله عنه فجعل ينادي ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله! فقالوا: من هذا؟ فقالوا: أبو بكر المجنون فتركوه، وأقبلوا على أبي بكر»[١].

(١) رواه أبو يعلى (٣٦٩١)، والحاكم (٣/ ٦٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٤٣١): رواه أبو يعلى والبزار وزاد: فتركوه وأقبلوا على أبي بكر. ورجاله رجال الصحيح.

ونال أبا بكر رضي الله عنه نصيبُه من الأذى، حتى فكر في الهجرة إلى الحبشة فرارًا بدينه[1].

وقام أبو بكر خطيبًا في المسجد الحرام ذات يوم فضربه المشركون ضربًا شديدًا، وممن ضربه عتبة بن ربيعة حيث جعل يضربه على وجهه بنعلين مخصوفتين حتى ما يُعرف وجهه من أنفه. وجاء رجال من قبيلة أبي بكر فصرفوا المشركين عن أبي بكر، وحملوه في ثوب إلى منزله، ولا يشكون في موته، وأقسموا لئن مات أبو بكر ليُقتلن عتبة بن ربيعة[2].

ما حدث لعثمان رضي الله عنه

وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق النخيل، ثم يدخنه من تحته.

وروى أنه عندما أسلم أخذه عمه الحكم بن أبي

(١) انظر الحديث بتمامه من رواية البخاري، الصحيح (فتح الباري ١٠/ ٤٣، ٤٤ / ح ٢٢٩٧).

(٢) ابن كثير في البداية (٣/ ٣٣، ٣٤).

العاص بن أمية فأوثقه رباطًا، وأقسم ألا يحله إلا إذا ترك الإسلام، فأقسم عثمان على عدم تركه الإسلام، فلما رأى عمه صلابته فى دينه تركه.

ما حدث لمصعب بن عمير رضي الله عنه

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيتها، وكان من أنعم الناس عيشًا، فحبسته أمه وحرمته من مالها فاستطاع أن يهرب منها وعاش زاهدًا حتى استشهد يوم أحد.

ما حدث لأبى ذر رضي الله عنه

وعندما سمع أبو ذر الغفارى بخبر النبى ﷺ جاء ودخل مكة، وأخذ يسأل عن الرسول ﷺ، فضربه أهل مكة حتى غُشى عليه، وكاد أن يموت، فخلَّصه العباس رضي الله عنه منهم.

* * *

تعذيب الموالى

بعد أن بذلت قريش كل ما فى وسعها من قوة وحيلة فى إطفاء أنوار الدعوة المحمدية، وباءت بخيبة مريرة حولّت ذلك إلى نقمة على المستضعفين من المؤمنين كبلال وعمّار ووالده ياسر وأمه سُميَّة، وصهيب الرومى، وخبَّاب بن الأرت وابن فهيرة، وأبى فكيه، ومن النساء زِنّيرة، والنهدية، وأم عُبيس.

بلال يردد نشيده الخالد: أحدٌ أحدٌ

* وكان بلالٌ مولى لأمية بن خلف فكان أمية يُخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتُوضع على صدره، ثم يقول له: [لا والله] لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعُزى؛ فيقول وهو فى ذلك البلاء: أحدٌ أحدٌ.

* * *

اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة

وأما عمّار وأمه ووالده ياسر فقد كانوا يُخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحرّها، فمرَّ بهم النبى ﷺ وهم يُعذَّبون، فقال: «صَبْرًا آل يَاسر فإن موعدكُم الجنة»[1] فمات ياسر تحت العذاب رحمه الله رحمة واسعة.

وأما سمية فقد أغلظت القول لأبى جهل فطعنها بحربته فى موطن عفتها فماتت شهيدة، فكانت أول شهيدة فى الإسلام.

أخذ المشركون عمَّارًا، فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبى ﷺ قال: «ما وراءك؟».

قال: شرٌّ يا رسول الله، والله ما تُركتُ حتى نلتُ

(١) حسن صحيح: رواه الطبرانى (٢٤/٣٠٣، رقم ٧٦٩)، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى تخريجه لكتاب فقه السيرة (ص١٠٣)، وقال: حسن صحيح.

منك، وذكرتُ آلهتهم بخير، قال: «فكيف تجدُ قلبك»؟

قال: مطمئنٌ بالإيمان.

قال: «فإن عادوا فعُد»(١).

فنزل قول الله: ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾(٢).

وكان حظ (خبّاب) من العذاب كبيرًا

ولقد كان حظ «خبّاب» من العذاب كبيرًا، ولكن صبره وتضحيته من أجل الحق كانت أكبر وأعظم بكثير.

لقد كانوا يقاومون إيمانه بالعذاب، وكان هو يقاوم العذاب بالصبر والتضحية.

وكان رضي الله عنه مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية، فكان المشركون يذيقونه أنواعًا من التنكيل، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبًا، ويلوون عنقه تلوية عنيفة، وأضجعوه مرات عديدة على فحام ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجرًا،

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٣٥٧) وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) سورة النحل: الآية: (١٠٦).

حتى لا يستطيع أن يقوم[1] .

تسليط الأذى على النبى ﷺ

ولم يكن العذاب خاصًا بأصحاب الرسول ﷺ وحدهم بل إن المشركين آذوا الرسول ﷺ كثيرًا.

* فتعالوا بنا لنرى صورًا من إيذاء المشركين لسيد المرسلين ﷺ .

إيذاء أبى جهل للنبى ﷺ

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه[2] بين أظهركم؟ - أى: هل يصلى ويسجد - قالوا: نعم.

فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرنَّ وجهه فى التراب. قال فأتى

(١) رحمة للعالمين (١/ ٥٧).

(٢) يعفر وجهه: أى يسجد ويلصق وجهه بالعفر وهو التراب.

رســـول الله ﷺ وهو يـصلى، من أجل أن يطـأ على رقبته، قال: فوجدوه فجأة يرجع إلى الوراء ويتقى بيديه. قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بينى وبينه لخندقًا من نار وهولاً وأجنحة.

فـقال رسـول الله ﷺ: «لو دنا منى لاخـتـطفتـه الملائكة عضواً عضواً»(1).

إيذاء أبى لهب للنبى ﷺ

* عن ربيعة بن عباد الديلى قال:

«رأيت رسـول الله ﷺ بعـينى بسوق ذى المجـاز يقول: يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، إلا أن وراءه رجـلاً أحـولاً وضىء الوجـه(2) ذو غـديرتين يقول: إنـه صابئ(3) كاذب، فقلت: مـن هذا؟ قالوا:

(1) صحيح: رواه مسلم (2797) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.
(2) وضىء الوجه: حسن الوجه.
(3) صابىء: خرج من دين إلى دين آخر.

محمد بن عبد الله، وهو يذكر النبوة. قلت: ومن هذا الذى يكذّبه؟، قالوا: عمه أبو لهب».

* وكان أبو لهب قد زوّج ولديه عتبة وعتيبة ببنتى رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة، حتى طلقاهما»[1].

ولما مات عبد الله، الابن الثانى لرسول الله ﷺ استبشر أبو لهب، وهرول إلى رفقائه يبشرهم بأن محمدًا صار أبتر[2]. فنزل قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[3].

وامرأته حمالة الحطب

وكانت امرأة أبى لهب - أم جميل، أروى بنت حرب ابن أمية أخت أبى سفيان - لا تقلّ عن زوجها فى عداوة النبى ﷺ فقد كانت تحمل الشوك وتضعه فى طريق

(١) تفهيم القرآن (٦/ ٥٢٢).
(٢) تفهيم القرآن (٦/ ٤٩٠).
(٣) سورة الكوثر: الآية: (٣).

النبي ﷺ وعلى بابه ليلاً، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها، وتطيل عليه الافتراء والدَّس، وتثير حربًا شعواء على النبي ﷺ ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب، ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبوبكر الصديق، وفي يدها حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مُذممًا عصينا . وأمره أبينا . ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني[1][2].

---

(١) ابن هشام (١/٣٣٥، ٣٣٦).

(٢) رواه البيهقي (٢/١٩٥) والحاكم (٢/٣٦١) وصححه ووافقه الذهبي، وانظر صحيح السيرة النبوية للعلامة الألباني رحمه الله (ص١٣٧-١٣٨).

كيف كانت نهاية أبى لهب

شاء الله أن يموت أبو لهب بعد غزوة بدر.. ولكن تأمل كيف كان موته عبرة لمن يعتبر.

لقد أصيب بمرض شديد اسمه العدسة وكان من الأمراض الشديدة المُعدية وكانت قريش تخشى من ذلك المرض.

فلما أُصيب بهذا المرض ومات تركه ابناه بعد موته ثلاثة أيام ما دفناه حتى أنتن حتى قال لهما رجل من قريش:

ويحكما، ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن فى بيته لا تدفنانه؟ فقالا: إنا نخشى عدوة هذه القرحة. فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه، فوالله ما غسلوه إلا قذفًا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدارٍ، ثم رجموا عليه بالحجارة.

❊ ❊ ❊

نهاية أم جميل (زوجة أبي لهب)

فبعد أن كانت تأتى كل يوم بحزمة كبيرة من الشوك وترميه فى طريق النبى ﷺ ... جاء اليوم الذى كان فيه هلاكها.

فبينما هى تحمل حزمة من الشوك فتعبت فجلست لتستريح فجذبها المَلَك من خلفها فخنقها بحبلها.

قال ابن كثير عن أم جميل:

«كانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عونًا عليه فى عذابه فى نار جهنم، ولهذا قال: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[1] يعنى: تحمل الحطب فتلقى على زوجها، ليزداد على ما هو فيه، وهى مهيأة لذلك، مستعدة له»[2].



(١) سورة المسد: الآيتان: (٤، ٥).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣٥).

إيذاء عقبة بن أبى معيط للنبى ﷺ

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس، وقد نُحرت جَزور[1] بالأمس، فقال أبوجهل: أيكم يقوم إلى سلا [2] جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه فى كتفى محمد إذا سجد.

فانبعث أشقى القوم عقبة بن أبى معيط فأخذه، فلما سجد النبى ﷺ وضعه بين كتفيه، قال فاستضحكوا[3]، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لى منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ . . . والنبى ساجد، ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة. فجاءت فطرحته عنه، ثم أقبلت تشتمهم، فلما قضى النبىُّ

(١) الجزور: الناقة.

(٢) سلا: اللفافة التى تكون فى بطن الناقة وسائر الحيوان، وهى من الآدمى المشيمة.

(٣) استضحكوا: حملوا أنفسهم على الضحك والسخرية ثم أخذهم الضحك جداً، فجعلوا يضحكون ويميل بعضهم على بعض.

صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم.

وكان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا، ثم قال:

«**اللهم عليك بقريش**» ثلاث مرات.

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، . . . ثم قال:

«**اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط**» فوالذي بعث محمدًا ﷺ بالحق! لقد رأيت الذين سمَّى صرعى يوم بدر(١).

* بلى وفي يوم من الأيام دعا عقبة بن أبي معيط زعماء قريش إلى الطعام ودعا رسول الله ﷺ معهم.. فوافق النبي ﷺ عسى أن يسمعوا كلام الله.. فلما قدّم له عقبة الطعام رفض النبي ﷺ أن يأكل حتى ينطق عقبة الشهادتين.. فنطق عقبة الشهادتين من وراء قلبه حتى يأكل النبي ﷺ.. فأكل النبي ﷺ ودعاهم إلى

(١) رواه البيهقي (٢/١٩٥)، والحاكم (٢/٣٦١).

الله ثم انصرف وكان هناك صديق لعقبة بن أبي معيط مسافرًا وهو أبي بن خلف.. فلما عاد قال له المشركون: لقد أسلم عقبة وصبأ ودخل في دين محمد ﷺ... فذهب إليه مُغضبًا وقال له: كيف تُسلم وتترك دين الآباء والأجداد... لن أكلمك حتى تكفر بمحمد وتذهب لتؤذيه.

فذهب عقبة إلى النبي ﷺ وجذبه من ثوبه وخنقه خنقًا شديدًا وتفل في وجه النبي ﷺ حتى جاء أبو بكر ودافع عن رسول الله ﷺ فمات عقبة بن أبي معيط يوم بدرٍ كافرًا ونزل فيه قول الله (عز وجل): ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ (١).

* بل لقد حاولوا قتل النبي ﷺ أكثر من مرة ونجّاه الله (عز وجل).

---

(١) سورة الفرقان: الآيات: (٢٧-٢٩).

* ولم تكتفِ قريش بالإيذاء الجسدى للنبى ﷺ بل تعدّى ذلك إلى الإيذاء المعنوى... فلقد اتهموه بأنه شاعر وساحر ومجنون وطردوه من مكة وهو يبكى ويقول: والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله وإنك لأحب بلاد الله إلى رسول الله ولولا أن قومى أخرجونى منك ما خرجت.

* بل وصل الأمر إلى أن اتهموا النبى ﷺ فى عرضه وشرفه... فاتهموا أمنا عائشة رضي الله عنها زوج النبى ﷺ بأنها فعلت الفاحشة.. ونزلت براءتها من فوق سبع سماوات بقرآنٍ يُتلى إلى يوم القيامة فى سورة النور.

إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما

وفى وسط هذا الظلم والإيذاء الشديد للنبى ﷺ وأصحابه حدث ما لم يتوقعه المشركون... فلقد أسلم حمزة بن عبد المطلب الذى كان الناس يعملون له ألف

حساب بسبب قوته وشجاعته.

وأسلم عدد آخر من الرجال.. على رأسهم: عمرو ابن عبسة وضماد الأزدى وأبو ذر الغفارى.

ولكن الضربة القاضية لظهر المشركين بعد إسلام حمزة هى إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فقد أسلم عمر بعد إسلام حمزة بأيام وذهب إلى دار الأرقم وأسلم بين يدى النبى ﷺ.. وأصر على أن يخرجوا جميعًا أمام المشركين ليعرفوا أن المسلمين قد أصبحوا أقوياء.

* وخرج المسلمون لأول مرة يجهرون بكلمة التوحيد أمام المشركين فى صفَّين.. على رأس الصف الأول عمر ابن الخطاب.. وعلى رأس الصف الثانى حمزة بن عبد المطلب. فعرف المشركون أن المسلمين قد أصبحوا أقوياء - بفضل الله جل وعلا -.

* * *

إن إسلام (عمر) كان فتحًا

ولقد كان إسلامه سببًا عظيمًا في ظهور الإسلام وقوته، وذلك لما كان يتميز به من القوة والشجاعة فكان لا يخاف في الله لومة لائم.

* **قال ابن مسعود رضي الله عنه:** «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر»[1].

وقال عبد الله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه.

وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

* * *

---

(١) **صحيح:** رواه البخاري (٣٦٨٤) كتاب المناقب.

المشركون يعرضون على النبى ﷺ المال والمنصب

لما أكثر المشركون من التعذيب والاستهزاء والسخرية بالمسلمين رجاء أن يصدهم ذلك عن دينهم، وكان المسلمون لا يزدادون بذلك إلا إيمانًا ويقينًا، فلما لم يفلحوا فى ذلك، لجأوا إلى أسلوب آخر - بِلُغَةِ العصر أكثر دبلوماسية - فأرادوا أن يعرضوا على النبى ﷺ عروضًا لعله يرجع عما هو عليه، أو يتنازل عن بعض الحق الذى يدعو إليه، فمن هذه العروض أنهم أرسلوا عتبة بن ربيعة ليعرض على الرسول ﷺ ما قد رآه حلاً للمشكلة(١).

فأتاه عتبة، فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ - يعنى أباه -.

فسكت النبى ﷺ، قال: أنت خير أم عبد المطلب؟

(١) وقفات تربوية (ص:٨٨).

فسكت رسول الله ﷺ ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبدناها، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، أما والله ما رأينا أحدًا أشأم على قومك منك، فرّقت جماعتنا، وشتّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى طار فيهم أنَّ في قريش ساحرًا، وأنَّ في قريش كاهنًا.

* والله ما بقي إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف فنتقاتل حتى نفنى يا محمد: إن كنت تريد مُلكًا ملّكناك.. وإن كنت تريد المال أعطيناك من أموالنا ما تشاء وإن كنت مريضًا داويناك.

فلما انتهى الرجل من كلامه قال له رسول الله بكل أدبٍ: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم.

قال: فاسمع مني، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

---

(١) سورة فصلت: الآيات: (١-٣).

فلما انتهى رسول الله؛ قام عُتبة إلى أصحابه فقال لهم: والله لقد سمعت قولاً إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَمُثْمر، وإن أسفله لَمُغْدِق، ما هو بالشِّعر ولا بالكَهَانة، ولا بقول البشَر، فاتركوا محمدًا وأمْره.

فلئن ظهر فَملْكُه مُلككُم، وإن كان غير ذلك هَلَك وحده.

فقالوا: سَحَرك يا أبا الوليد بِلِسَانه.

فقال لهم: لا تَقُولوا ساحر، ولا كاهن، ولا مَجنون، بل قُولوا: إنه يُفرق بَيْن المرءِ وزوجه، فنزل القرآن يذكر هذه الحادثة، ويذَم عُتبة بن ربيعة[1]، ويتوعده بالعذاب فى الآخرة.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر آيات سورة المدثر: الآيات: (١١-١٣).

الهجرة الأولى إلى الحبشة

كانت بداية الاضطهادات في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة بدأت ضعيفة ثم لم تزل يومًا فيومًا وشهرًا فشهرًا حتى اشتدت وتفاقمت في أواسط السنة الخامسة.

* فلما رأى رسول الله ما يُصيب أصحابه منَ البَلاء، ومما هُو فيه من العافية لمكانه من الله ومن عمِّه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتُم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحدٌ، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه». فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام[1].

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٦٦).

* كان الرحيل إلى الحبشة تسللاً فى الخفاء، حتى لا تستيقظ قريش للأمر فتُحبطه، ولم يبدأ كذلك على نطاق واسع، بل كان الفوج الأول مكونًا من بضع أسر، فيهم رقية ابنة النبى عليه الصلاة والسلام وزوجها عثمان بن عفان، ونفر آخر من المهاجرين لم يزيدوا جميعًا عن ستة عشر. وقد يمموا شطر البحر حيث قيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، فلما خرجت قريش فى آثارهم إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين[1].

مفاجأة لا تخطر على البال

وفى رمضان فى نفس السنة خرج النبى ﷺ إلى الحرم، وهناك جمعٌ كبير من قريش كان فيه ساداتها وكبراؤها، فقام فيهم، وأخذ يتلو سورة النجم بغتة.

إن أولئك الكفار لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك؛ لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تواصى به

(١) فقه السيرة للغزالى (ص: ١٣٠).

بعضهم بعضًا، من قولهم: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(١) فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة وقرع آذانهم كلام إلهي رائع وبقي كل واحد مصغيًا إليه، لا يخطر بباله شيء سواه، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾(٢) ثم سجد - لم يتمالك أحدٌ نفسه حتى خر ساجدًا(٣).

فسجد المشركون خلف النبي ﷺ وأصحابه.

وبلغ هذا الخبر إلى مهاجري الحبشة، ولكن في صورة تختلف تمامًا عن صورته الحقيقية... بلغهم أن قريشًا أسلمت، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة فلما وصلوا إلى مكة عرفوا حقيقة الأمر بأن قريشًا مازالت على شركها.

فرجع منهم من رجع إلى الحبشة.. ومنهم من دخل مكة مستخفيًا ومنهم من دخل في حماية رجل من أقربائه المشركين.

---

(١) سورة فصلت: الآية: (٢٦).

(٢) سورة النجم: الآية: (٦٢).

(٣) صحيح: رواه البخاري (١٠٧١) كتاب الجمعة.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

لما علمت قريش برجوع بعض الذين هاجروا إلى الحبشة الهجرة الأولى سلطت عليهم من العذاب ألوانًا وضاعفت عليهم العذاب.

فلم ير الرسول ﷺ بُدًّا من أن يشير على أصحابه بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة. وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها. لكن المسلمين كانوا أسرع. فخرج منهم فى هذا الفوج ثلاثة وثمانون رجلاً وتسع عشرة امرأة، ويسَّر الله لهم السفر فانحازوا إلى نجاشى الحبشة. ووجدوا عنده ما يبغون من أمان وطيب جوار وكرم وفادة.

* وعاش المسلمون فى رحاب النجاشى أسعد حياة فى بلاد الحبشة ولما علمت قريش بتلك الهجرة أرسلت خلفهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة - وكانا

ماززالا على الشرك - .

أرسلتهم قريش بالهدايا إلى النجاشي ليرد إليهم هؤلاء المهاجرين فرفض النجاشي أن يردهم وبخاصة بعد أن تكلم معه جعفر بن أبى طالب وأخبره بحقيقة ما حدث للنبى ﷺ وأصحابه فتعاطف معهم النجاشي ورفض أن يردهم إلى المشركين وجعلهم يعيشون معه فى أمنٍ وأمان . . . بل وأسلم بعد ذلك وأسلم معه عدد كبير من الأحباش وكان يراسل النبى ﷺ .

وظل المسلمون فى أمان حتى عادوا إلى المدينة فى فتح خيبر .

* ولما مات النجاشي وعلم النبي ﷺ بذلك قام ليصلى عليه هو وأصحابه صلاة الغائب .

* * *

الصحيفة الظالمة والمقاطعة العامة

فلما رأت قريشٌ أمرَ رسول الله ﷺ يعلو، والأمور تتزايد، أجمعوا على أن يتعاقدوا على بنى هاشم، وبنى عبد المطلب، وبنى عبد مناف، أن لا يُبايعوهم، ولا يُناكِحوهم، ولا يُكلموهم، ولا يُجالِسُوهُم حتى يُسلّموا إليهم رسولَ الله ﷺ وكتبوا بذلك صحيفة، وعلّقوها فى سقف الكعبة.

وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب (مؤمنهم وكافرهم) إلا أبا لهب فإنه وقف فى صف كفار قريش فى عداوتهم لرسول الله ﷺ.

وحُبس النبى ﷺ ومن معه فى شِعب أبى طالب ثلاث سنوات فقد منع المشركون عنهم الطعام فلم يكن لهم طعام إلا ورق الشجر حتى تقرحت أشداقهم وبلغ بهم الجهد مبلغًا شديدًا حتى كان الناس يسمعون صوت بكاء الأطفال وصُراخ النساء من وراء الشِّعب.

وكان الصحابة إذا قدمت عير إلى مكة، يأتى أحدهم السوق ليشترى شيئًا من الطعام قوتًا لعياله فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد ﷺ حتى لا يدركوا معكم شيئًا. وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى فأنا ضامن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافًا حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يصرخون من الجوع. وليس من يده شيء يطعمهم به. ويغدو التجار على أبى لهب فيُربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى تعب المؤمنون ومن معهم من شدة الجوع والعرى.

نقض الصحيفة الظالمة

وكانت قريش بين راضٍ وكارهٍ لهذه المقاطعة... وقد أحزنت تلك الآلام التى حدثت للمسلمين بعض ذوى الرحمة من قريش فكان أحدهم يحمل الزاد والطعام على ظهر البعير ثم يضربه فى اتجاه الشّعب ليصل إلى

المحصورين فيخفف عنهم شيئًا من الفقر والجوع والحرمان.

* ثم سعى بعض الناس من قريش في نقض هذه الصحيفة وكان القائم بهذا السعي هشام بن عمرو بن ربيعة.. فقد ذهب إلى مُطعم بن عدى وجماعة من قريش فوافقوا على ذلك.

ولكن أمر الله كان قد سبقهم.. فقد أخبرهم النبي ﷺ بأن الله قد سلّط على الصحيفة حشرة «الأَرَضة» فأكلت كل الشروط الظالمة من الصحيفة ولم يبق منها إلا كلمة واحدة: «باسمك اللهم».

* ثم رجع بنو هاشم وبنو المطلب إلى مكة.. وحصل الصلح بالرغم من أنف أبى جهل.



عام الحزن

وما إن خرج النبي ﷺ وأصحابه من شِعب أبي طالب حتى تتابعت عليه المحن والأحزان... فقد مات عمه أبو طالب الذي كان يدافع عنه وينصره... ولم تكن المصيبة في موته فحسب بل كانت المصيبة في أنه مات كافرًا مع أن النبي ﷺ كان يتابعه بالدعوة حتى آخر لحظة في عمره.

* عن المسيب رضي الله عنه قال: «لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية ابن المغيرة. فقال رسول الله ﷺ: «يا عم قل لا إله إلا الله. كلمة أشهد لك بها عند الله»[1].

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! ترغب عن ملة عبد المطلب! فلم يزل رسول الله ﷺ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٦٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٤) كتاب الإيمان.

يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم، هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

فقال رسول الله ﷺ: «أما والله! لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[1] وأنزل الله تعالى في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2][3].

* وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل[4] من النار»[5].

---

(١) سورة التوبة: الآية: (١١٣).

(٢) سورة القصص: الآية: (٥٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٨٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤) كتاب الإيمان.

(٤) الدرك الأسفل: قعر النار.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٨٣) كتاب المناقب، ومسلم (٢٠٩) كتاب الإيمان.

ولما مات أبو طالب وجدت قريش فرصة كبيرة لإيذاء النبي ﷺ فقد مات الذي كان يدافع عنه... فقام واحد من سفهاء قريش وألقى التراب على رأس النبي ﷺ ... حتى قال النبي ﷺ : «**ما نالت منى قريشٌ شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب**».

* وكانت وفاة أبي طالب في رجب سنة عشر من البعثة بعد الخروج من الشِّعب بستة أشهر.

* وما كاد النبي ﷺ يخلع ثوب الحزن على عمه حتى فُجع بموت زوجته وشريكة عمره خديجة رضي الله عنها التي آزرته ونصرته وبذلت نفسها ومالها لنُصرة هذا الدين... وكانت نعم الزوجة.

وكانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة على أشْهَرِ الأقوال، ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره.

وحزن النبي ﷺ لموتها حزنًا شديدًا فلقد كانت نعم الزوجة الصابرة المخلصة التي آزرته طوال حياته وبذلت

من أجل نُصـرة هذا الدين كل غالٍ ونـفيس فلم يسـتطع النبي ﷺ أن ينسـاها أبدًا وكان يحمل لهـا وفاء يعـجز القلم عن وصفه.

فـهـا هو الحـبيب ﷺ يُثني عليـها ويقـول: «كَمُلَ من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عـمران - وخديجـة بنت خويلـد - وإن فضل عائشـة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1].

* وقد علَّق أحـد العلماء الأفاضـل على هذا الحديث تعليقًـا لطيفًا فـقال: من الموافقـات اللطيفة التي جـمعت الثـلاث في نسق واحد أن كل واحـدة منهم كـفلت نبيًّا مُرسَلاً، وأحسنت صحبته وآمنت به، فآسيا ربَّت موسى، وأحسنـت إليه، وصدقت به حـين بُعث، ومريم كـفلت عيـسى وربته، وصدقت به حين أُرسل، وخديجـة رغبت في النبي وواسته بنفسها ومالها، وأحسنت صحبته، وكانت

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤١١) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٤٣١) كتاب فضائل الصحابة.

أول من صدقه حين نزل عليه الوحي.

ولم يتزوج النبي ﷺ امرأة قبلها أبدًا.. بل ولم يتزوج عليها حتى ماتت.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة حتى ماتت[1].

* وعن أنس رضي الله عنه أن النبي قال: «حسبُك من نساء العالمين مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون»[2].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيدات نساء أهل الجنة بعد مريم بنت عمران فاطمة وخديجة وآسية امرأة فرعون»[3].

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٣٦) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٨٧٨) كتاب المناقب، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣١٤٣).

(٣) صحيح: رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٤١٥، رقم ١٢١٧٩)، وفي الأوسط (٢/ ٢٣، رقم ١١٠٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٤٢٤).

زواج النبى ﷺ بسودة ثم عائشة رضي الله عنها

لقد كان أصحاب الحبيب ﷺ يعرفون قدر خديجة رضي الله عنها عند النبى ﷺ فعندما ماتت كانوا يرجون أن يرزقه الله (عز وجل) بما يخفف عنه من آلامه وأحزانه.. ولكن لم يكن أى واحد منهم يجرؤ أبدًا أن يكلم النبى ﷺ فى أمر الزواج فشاء الحق (جل وعلا) أن تتجرأ واحدة من فُضليات نساء الصحابة ألا وهى خولة بنت حكيم لتعرض هذا الأمر على رسول الله ﷺ من أجل إدخال الفرح والسرور على قلبه المحزون.

جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فقالت: يا رسول الله ألا تزوج قال: «من؟».

قالت: إن شئت بكرًا، وإن شئت ثيبًا».

قال: «فمن البكر؟».

قالت: ابنة أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبى بكر.

قال: «ومن الثيب؟».

قالت: سودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول.

قال: «**فاذهبى فاذكريهما علىَّ**».

فدخلت بيت أبى بكر فقالت: يا أم رومان ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟

قالت: وما ذاك؟.

قالت: أرسلنى رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة.

قالت: انتظرى أبا بكر حتى يأتى.

فجاء أبو بكر فقالت: يا أبا بكر ماذا أدخل عليك من الخير والبركة!.

قال: وما ذاك؟

قالت: أرسلنى رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة.

قال: وهل تصلح له؟ إنما هى ابنة أخيه.

فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له قال: ارجعى إليه فقولى له: «**أنا أخوك، وأنت أخى فى الإسلام، وابنتك تصلح لى**» فرجعت فذكرت ذلك له.

* لكن كانت هناك مشكلة كبيرة.. وهي أن أبا بكر كان قد وعد مُطعم بن عدى أن يزوج ابنه من عائشة فأراد أبو بكر أن يجد حلاً لهذه المشكلة وبخاصة أنه ما وعد أحدًا وعدًا فأخلفه أبدًا.

ذهب أبو بكر إلى مطعم بن عدى وكانت عنده امرأته أم الفتى الذى كان يريد أن يتزوج عائشة...

فقالت هذه المرأة لأبى بكر: إنى لأخشى إن تزوج ابنى من ابنتك عائشة أن تجعله مسلمًا ويترك دين الآباء والأجداد... أى أنها لا تريد إتمام هذه الزيجة.

فنظر أبو بكر إلى مطعم بن عدى وقال له: ما رأيك.

قال: رأيى مثل رأيها.

فخرج أبو بكر وهو يحمد الله أن يسَّر له الخروج من هذا الوعد دون أن يكون هو الذى أخلف وعده.

فرجع فقال لخولة: ادعى لى رسول الله ﷺ، فدعته فزوَّجها إياه، وعائشة يومئذٍ بنت ست سنين.

ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت: ما

أدخل الله عليك من الخير والبركة؟

قالت: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك إليه.

قالت: وددت، ادخلي إلى أبي فاذكري ذلك له. وكان شيخًا كبيرًا قد أدركه السن قد تخلف عن الحج، فدخلت عليه فحيته بتحية الجاهلية.

فقال: من هذه؟

قالت: خولة بنت حكيم.

قال: فما شأنك؟

قالت: أرسلني محمد بن عبد الله ﷺ أخطب عليه سودة.

فقال: كفء كريم، ماذا تقول صاحبتك؟

قالت: تحب ذلك.

قال: ادعيها إلي.

فدعيتها قال: أي بنية، إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك وهو كفء كريم،

أتحبين أن أزوجك به؟ قالت: نعم.

قال: ادعيه لى، فجاء رسول الله ﷺ فزوجها إياه.

* وأما عائشة فقد عقد عليها النبى ﷺ قبل الهجرة وهى بنت ست سنوات وتزوجها وبنى بها بعد الهجرة وقد بلغت من العمر تسع سنوات.. وكانت فى هذا السن ناضجة بالغة تستطيع أن تتحمل عبء الحياة الزوجية.

* * *

النبى ﷺ يخرج ليدعو أهل الطائف

فى شوال سنة عشر من النبوة خرج النبى ﷺ إلى الطائف، وهى تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً، سارها ماشيًا على قدميه ذهابًا وعودة، ومعه مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، وكان كلما مر على قبيلة فى الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تستجب إليه واحدة منها؛ وهنا لنا أن نتساءل: لماذا اختار رسول الله ﷺ الطائف وقبيلة ثقيف دون غيرها واتجه إليها؟

لماذا اختار النبى ﷺ الطائف؟

لقد كانت الطائف قريبة جداً من مكة وكانت من أهم البلاد لأهل مكة.

ولقد حاولت مكة فى الماضى أن تضم الطائف إليها، كما كان كثير من أغنياء مكة يملكون الأملاك فى الطائف

ويقضون فيها فصل الصيف، فإذا استطاع النبى ﷺ أن يجد له فيها موضع قدم وعصبة تناصره؛ فإن ذلك سيُفزع قريشًا، ويهدد أمنها ومصالحها الاقتصادية تهديدًا مباشرًا، علاوة على أنها تقترب من مكانة مكة عند العرب.

فلما انتهى النبى ﷺ إلى الطائف ذهب إلى ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم: عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفى، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم: هو يَمْرُط ثياب الكعبة (أى يمزقها) إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وَجَدَ الله أحدًا غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولاً لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام! ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى أن أكلمك، فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «**إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى**».

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام،

لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلَّمه، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به عبيدهم، فلما أراد الخروج تبعه عبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له صفين وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السَّفَه، ورجموا عَرَاقِيبَهُ، حتى اختضب نعلاه بالدماء - فداه أبي وأمي ونفسي - وكان زيد بن حارثة رضي الله عنه يقيه بنفسه حتى أصيب بجرح في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه ﷺ إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه.

وأتى رسول الله ﷺ إلى شجرة عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار، ودعا ربه فقال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسعُ لي، أعوذُ بنور

وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بى غضبك أو يحل عليَّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له قلوبهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له: عَدَّاس، وقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب، واذهب به إلى هذا الرجل.

فلما وضعه بين يدى رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلاً: «بسم الله»، ثم أكل، فقال عَدَّاس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له النبي ﷺ: «من أى البلاد أنت؟ وما دينك؟» قال: أنا نصرانى من أهل نِينوى، فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متَّى؟»، قال له: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ قال رسول الله ﷺ: «ذاك أخى، كان نبيًّا وأنا نبى»، فأكبَّ عدَّاس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها.

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاء عداس قالا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا

سيدى، ما فى الأرض شىء خير من هذا الرجل، لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنَّك عن دينك؛ فإن دينك خير من دينه[1].

وكان فى إقبال عَدَّاس على رسول الله ﷺ وتصديقه وإكرامه بتقبيل يديه ورجليه وبكائه أمامه، ثم رقة ابنى ربيعة للرسول ﷺ وسماعهما كلام عداس بمثابة اعتذار فعلى لرسول الله ﷺ وتهدئة لنفسه.

وهكذا أسرعت إشارات الخير والكرامة والإجلال، فأقبلت تعتذر عن الشر والسفاهة والطيش، وجاءت القُبُلات بعد كلمات العداوة، وكان ابنا ربيعة من ألدّ أعداء الإسلام، وممن مشوا إلى أبى طالب من أشراف قريش يسألونه أن يكفه عنهم أو يخلى بينهم وبينه، أو ينازلوه إياه حتى يهلك أحد الفريقين، فانقلبت الغريزة الوحشية إلى معناها الإنسانى الذى جاء به هذا الدين؛ لأن المستقبل الدينى للفكر الصائب لا الغريزة العمياء.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢١).

وقفل الرسـول ﷺ عائدًا إلى مكة، إلى البلد الذى طرد خِيرة أهله، فهاجر بعضهم إلـى الحبشة وأُكره الباقى على معاناة العذاب الواصب، أو الفرار إلى الجبال، ورجع رسول الله ﷺ فى طريق مكة بعد خـروجه من الحائط كئيبًا حزينًا كسـير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جـبريل عليه السـلام ومعه ملك الجـبال، يستأذنه أن يُطبق الأخشبين (أى الجبلين) على أهل مكة.

عن عائشة رضي الله عنها أنهـا قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كـان أشد من يوم أُحُدٍ؟ فـقال: «لقد لقـيتُ من قومك، وكان أشـد ما لقيتُ منهم يوم العقـبة، إذ عرضتُ نفسى علـى ابن عبد ياليل بن عبد كُـلال فلم يُجبنى إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمُومٌ على وجهى، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسى فإذا أنا بسـحابة قد أظلتنى، فنظرتُ فإذا فيها جبريل عليه السلام، فنادانى فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قـومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجـبال لتأمُـره بما شئت فـيهم، قال: فنادانى ملك الجـبال وسلم علىَّ ثم

قال: يا محمدُ، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»[1][2].

هكذا كانت الرحمة في قلب النبي ﷺ للناس من حوله.

ولا عجب في ذلك فقد قال الله عنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3].

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٣١) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٧٩٥) كتاب الجهاد والسير.

(٢) مدرسة السيرة النبوية / الشيخ محمد يعقوب (ص:٢٧٨ : ٢٨١).

(٣) سورة الأنبياء الآية: (١٠٧).

إسلامُ نفرٍ من الجن في وادي نخلة

وفي طريق عـودته من الطائف، أقام الـرسول ﷺ أيامًا في وادي نخلة القريب من مكة، وخلال فترة إقـامته هذه بعث الله إليـه نفـرًا من الجن استـمـعوا إلى القـرآن الكريم، وأسلموا وعادوا إلى قومهم منذرين ومبشرين كما ذكر الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

ومن سـياق هذه الآيات يتـبين لنا أن النبي ﷺ لم يعلم حضور ذلك الـنفر من الجن حين حضروا وسـمعوا، وإنما علم بعد ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة، ثم وفَدُوا بعد ذلك مرارًا.

---

(١) سورة الأحقاف: الآيات: (٢٩-٣١).

قصة الإسراء والمعراج

حبايبي الحلوين.

قبل أن نبدأ ذكر قصة الإسراء والمعراج فلا بد أن نُكثر من الصلاة على النبي محمد بن عبد الله ﷺ.

رحلة الإسراء والمعراج كانت تكريماً لشخص النبي ﷺ

وفي ظل هذه الأحزان الشديدة التي تعرض لها النبي ﷺ كان من رحمة الله بالنبي ﷺ أن أكرمه برحلة الإسراء والمعراج لتكون تكريمًا له ﷺ، وتسلية له عما أصابه من المصائب والأحزان ليزداد يقين النبي ﷺ بنجاح دعوته وتبليغ رسالة ربه (جل وعلا) والنصر على أعدائه.

وفي هذه الرحلة أطلعه الله على أشياء عظيمة من

ملكوته العظيم حتى امتلأ قلب النبي ﷺ بالنور والرضا والطمأنينة.

رحلة الإسراء وشق صدر النبي ﷺ

كان النبي ﷺ نائمًا في بيت أم هانئ بنت أبي طالب وكان بيتها عند شِعب أبي طالب.

وفجأة انفتح سقف بيتها ونزل جبريل (عليه السلام) فتعجب النبي ﷺ وسأل جبريل عن سبب نزوله فأخبره جبريل أنه لابد أن يخرج معه الآن إلى المسجد.

فخرج معه النبي ﷺ إلى المسجد وإذا بجبريل (عليه السلام) يشق صدر النبي ﷺ ثم يغسله بماء زمزم ثم جاء بطست من الذهب قد امتلأ حكمة وإيمانًا فأفرغها في صدر النبي ﷺ ثم أغلق صدره.

ونحن نعلم يا أحبابي أن جبريل (عليه السلام) شق صدر النبي ﷺ ثلاث مرات:

المرة الأولى: وهو صغير يلعب مع الغلمان فأخذه

جبريل فصرعه فشق صدره واستخرج القلب واستخرج منه علقة وقال له: هذا حظ الشيطان منك ثم غسل صدر النبى فى طست من ذهب بماء زمزم ثم أعاد صدره كما كان.

والمرة الثانية: عند بعثة النبى ... فقد فعل جبريل معه مثلما فعل فى المرة الأولى لكن زاد فى هذه المرة أن ختم فى ظهر النبى ﷺ خاتم النبوة.

والمرة الثالثة: عند رحلة الإسراء والمعراج.

النبى ﷺ يركب البُراق

وبعد أن غسل جبريل صدر النبى ﷺ أتاه بالبُراق.

والبُراق: هو دابة أبيض طويل وهو أكبر من الحمار وأصغر من البغل.

وهو سريع جداً يضع حافره عند آخر شىء يراه ببصره.

فخطوته كبيرة جداً يقطع بها المسافات الطويلة فى

وقت قصير.

* فلما أراد النبى ﷺ أن يركب البراق استصعب عليه فلم يتمكن النبى ﷺ من ركوبه.. فقال جبريل للبراق: أتفعل هذا بمحمد ﷺ؟ فوالله ما ركبك أحدٌ أكرم على الله منه ﷺ.

* وما هى إلا دقائق معدودات حتى وصل النبى ﷺ إلى بيت المقدس ثم ربط جبريل البراق بالحلقة التى كان يربط بها الأنبياء (صلوات ربى وسلامه عليهم).

ثم دخل النبى ﷺ المسجد وصلى فيه ركعتين.

ثم خرج النبى ﷺ بعد ذلك وإذا بجبريل ينتظره فى الخارج ومعه إناء فيه خمر وإناء آخر فيه لبن.

فنظر جبريل إلى النبى ﷺ وقال له: يا رسول الله: أيهما تختار: الخمر أم اللبن؟

فاختار النبى ﷺ اللبن.

فقال له جبريل (عليه السلام): لقد اخترت الفطرة[1].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٢) كتاب الإيمان.

رحلة المعراج

وبعد أن انتهت رحلة الإسراء بدأت رحلة المعراج فجاء جبريل (عليه السلام) بالمعراج العظيم الذى يصل من الأرض إلى السماء.. وهو السُّلَّمُ الكبير الذى صعد عليه النبى ﷺ فى جزء يسير من الليل إلى السماوات السبع.

ويا لها من رحلة عظيمة يعجز القلم عن وصفها.

فالنبى ﷺ أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عُرج به إلى السماوات السبع ثم عاد فى جزء يسير من الليل.



المشاهد التى رآها النبى ﷺ فى رحلة الإسراء والمعراج [1]

لقد رأى النبى ﷺ فى رحلة الإسراء مشهدًا عجيبًا!!!

يا ترى ما هو المشهد الذى رآه النبى ﷺ فى رحلة الإسراء؟

لقد رأى موسى (عليه السلام) وهو يصلى فى قبره.

قال ﷺ: «مررت على موسى ليلة أُسرى بى عند الكثيب الأحمر وهو قائم فى قبره يصلى».

النبى ﷺ يرى الأنبياء ويسلم عليهم

ففى رحلة المعراج لما صعد النبى ﷺ مع جبريل (عليه السلام) إلى السماء الدنيا فقالت الملائكة لجبريل: من هذا الذى معك.

---

(١) انظر البخارى (٣٢٠٧) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٦٢) كتاب الإيمان.

قال جبريل : هذا محمد رسول الله ﷺ .

فرحبت به الملائكة ترحيبًا شديدًا وفرحوا بلقاء النبى ﷺ فرحًا عظيمًا . . . فالنبى ﷺ هو حبيب أهل الأرض والسماء .

صعد النبى ﷺ إلى السماء الأولى فوجد فيها رجلاً وقورًا عن يمينه أُناس كثيرون وعن يساره أُناس كثيرون .

فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى .

فسأل النبى ﷺ جبريل (عليه السلام) وقال له : «من هذا الرجل؟» .

فقال جبريل: هذا آدم (عليه السلام) وهؤلاء الذين عن يمينه وشماله هم أولاده . . . فالذين عن يمينه هم أهل الجنة .

فإذا نظر إليهم ضحك . . والذين عن شماله هم أهل النار فإذا نظر إليهم بكى .

فاقترب النبى ﷺ من أبينا آدم (عليه السلام) وسلَّم عليه فردَّ عليه السلام وقال له : مرحبًا بالنبى الصالح

والابن الصالح.

* ثم صعد النبي ﷺ إلى السماء الثانية فسألت الملائكة جبريل (عليه السلام): من هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء الثانية.

فلما صعد النبي ﷺ إلى السماء الثانية وجد فيها عيسى ويحيى عليهما السلام، فقال له جبريل عليه السلام: هذا يحيى وعيسى فسلِّم عليهما فسلم النبى ﷺ عليهما فردا عليه السلام وقالا له: مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح.

* ثم صعد النبي ﷺ إلى السماء الثالثة فسألت الملائكة جبريل (عليه السلام) من هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا.. وفتحت له أبواب السماء الثالثة.

فلما صعد النبي ﷺ إلى السماء الثالثة وجد فيها يوسف (عليه السلام).

فقال له جبريل (عليه السلام): هذا يوسف فسلّم عليه.

فسلم النبي ﷺ عليه فردّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح.

* ثم صعد النبي إلى السماء الرابعة فسألت الملائكة جبريل (عليه السلام) من هذا الذي معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء الرابعة فلما صعد النبي ﷺ إلى السماء الرابعة وجد فيها إدريس (عليه السلام) فقال له جبريل (عليه السلام): هذا إدريس فسلّم عليه.

فسلم النبي ﷺ عليه فردّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح.

* ثم صعد النبي ﷺ إلى السماء الخامسة فسألت الملائكة جبريل (عليه السلام): من هذا الذي معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء الخامسة.

فلما صعد النبي ﷺ إلى السماء الخامسة وجد فيها هارون (عليه السلام).

فقال له جبريل (عليه السلام): هذا هارون فسلِّم عليه.

فسلم النبي ﷺ عليه فردَّ عليه السلام وقال له: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح.

* ثم صعد النبي ﷺ إلى السماء السادسة فسألت الملائكة جبريل (عليه السلام) من هذا الذي معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا.. وفتحت له أبواب السماء السادسة.

فلما صعد النبي ﷺ إلى السماء السادسة وجد فيها موسى (عليه السلام).

فقال له جبريل (عليه السلام): هذا موسى فسلِّم عليه.

فسلم النبي ﷺ عليه فردّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح.

فلما جاوزه النبى ﷺ ليصعد إلى السماء السابعة وإذا بنبي الله موسى يبكى فقيل له: ما يُبكيك؟.

قال: أبكى لأن محمدًا ﷺ يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى.

* ثم صعد النبى إلى السماء السابعة فسألت الملائكة جبريل (عليه السلام): من هذا الذى معك؟

فقال جبريل: هذا محمد رسول الله ﷺ.

ففرحت الملائكة به فرحًا عظيمًا... وفتحت له أبواب السماء السابعة.

فلما صعد النبى ﷺ إلى السماء السابعة وجد فيها إبراهيم(عليه السلام) فقال له جبريل (عليه السلام): هذا إبراهيم فسلّم عليه.

فسلم النبى ﷺ عليه فردّ السلام وقال له: مرحبًا بالنبى الصالح والابن الصالح.

* فرأى النبى ﷺ إبراهيم (عليه السلام) مُسندًا ظهره إلى البيت المعمور فى السماء السابعة.

فسأل النبى ﷺ جبريل (عليه السلام): ما هذا البيت؟

فقال جبريل: هذا البيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك فإذا خرجوا لم يعودوا إليه... يعنى كل يوم سبعون ألف ملك غير الذين قبلهم.

النبى ﷺ يرى سدرة المنتهى

ثم رأى النبى ﷺ سدرة المنتهى ووجد أن الثمرة الواحدة فيها مثل الجرَّة الكبيرة التى كانت تُصنع فى قرية هجر فى البحرين... ورأى ورقها مثل آذان الفيلة.

فسأل النبى ﷺ جبريل (عليه السلام): ما هذا.

فقال: هذه سدرة المنتهى.

* ورأى النبى أربعة أنهار: نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل النبى ﷺ جبريل (عليه السلام) وقال: «ما هذا؟».

فقال جبريل: أما النهران الباطنان فنهران فى الجنة وأما

النهران الظاهران فالنيل والفرات.

* ثم أتى جبريل للنبي ﷺ إناءً من خمر وإناءً من لبن وإناءٌ من عسل فاختار النبي ﷺ اللبن.

فقال جبريل: هذه هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك.

فرض الصلاة على النبي ﷺ وأمته

ثم فُرضت الصلاة على النبي ﷺ وأمته خمسين صلاة كل يوم.

فعاد النبي ﷺ . . . وفي طريق العودة مرَّ النبي ﷺ على موسى (عليه السلام) فسأله موسى وقال: بأي شيء أمرك الله (جل وعلا).

فقال النبي ﷺ: «أُمرت بخمسين صلاة كل يوم».

فقال موسى (عليه السلام): إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

فعاد النبي ﷺ إلى ربه وسأله التخفيف فوضع الله

عنه عشراً فأصبحت أربعين صلاة.

فعاد النبي ﷺ إلى موسى (عليه السلام) فقال له نفس الكلام وقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

فعاد النبي ﷺ إلى ربه وسأله التخفيف فوضع عنه عشراً فأصبحت ثلاثين صلاة.

وظل النبي ﷺ على تلك الحالة حتى أصبحت الصلاة خمس صلوات... فلما قال له موسى (عليه السلام): ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

قال له النبي ﷺ: **«لقد سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلِّم».**

فإذا بالحق (جل وعلا) يجعلها خمس صلوات ولكن بأجر خمسين صلاة.

* * *

رؤية النبى ﷺ
لمالك خازن النار والمسيح الدجال

وفى هذه الرحلة المباركة رأى النبى ﷺ أشياءً عجيبة .

وكان من بين تلك الأشياء التى رآها النبى ﷺ أنه رأى المسيح الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان . . ووصفه النبى ﷺ لأصحابه وصفًا دقيقًا .

ورأى النبى ﷺ مالكًا خازن النار وطلب جبريل (عليه السلام) من النبى ﷺ أن يسلم على مالك فسلم النبى ﷺ عليه فردَّ عليه السلام .

ولقد وصفه النبى ﷺ لأصحابه وأخبرهم بأنه كريه المنظر . . وذلك ليكون زيادة فى عذاب أهل النار .



رؤية النبى ﷺ للذين يغتابون الناس

وفى هذه الرحلة رأى النبى ﷺ منظرًا عـجيبًا...

فلقد رأى النبى ﷺ قومًا لهم أظفار من نحاس يُقطعون بهـا وجوههم وصـدورهم فـتعـجب النبى ﷺ وسـأل جبريل (عليه السلام) وقال له: «من هؤلاء يا جبريل؟».

فقال جبريل: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم.

أى: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقـولون عنهم كلامًا سيئًا فى غيبتهم.

رؤية النبى ﷺ لخطباء أمته الذين يقولون ما لا يفعلون

وفى هذه الرحلة أيضًا رأى النبى ﷺ منظرًا عجيبًا.

لقد رأى الـنبى ﷺ قومًا تُقـرض وتُقطع شفـاههم بمقاريض من النار فسأل جبريل (عليه السلام) وقال: «من

هؤلاء يا جبريل؟».

فقال جبريل: هؤلاء خطباء أمتك الذين كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون.

مرور النبى ﷺ على رائحة ماشطة ابنة فرعون

وفى هذه الرحلة ... بينما كان النبى ﷺ يصعد مع جبريل (عليه السلام) إلى السماوات السبع إذ مرت عليه رائحة طيبة فتعجب النبى ﷺ.

وسأل جبريل: ما هذا يا جبريل؟

فقال جبريل: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها.

فسأله النبى ﷺ عن قصتها.

فقال جبريل (عليه السلام): هذه امرأة كانت تعمل فى قصر فرعون وكانت وظيفتها أنها ماشطة ابنة فرعون.. فهى التى تربيها وتمشط شعرها وتدبر كل أمورها.

وفي يوم من الأيام كانت هذه الماشطة تمشط شعر ابنة فرعون فسقط منها المشط فمدت يدها وقالت: بسم الله.

فقالت ابنة فرعون: أبي؟!

فقالت الماشطة: إن أباك ليس إلهًا.. ولكني أقول: بسم الله الذي هو ربي وربك ورب أبيك.

فقالت ابنة فرعون: سأخبر أبي بذلك.

فقالت الماشطة: افعلي ما شئت.

فذهبت ابنة فرعون لأبيها وأخبرته أن الماشطة تعبد إلهًا غيره فأرسل إليها فرعون وسألها: هل تعبدين إلهًا غيري؟

فقالت الماشطة: أعبد الله ربي وربك ورب العالمين.

فأمر فرعون ببقرة من نُحاس فأُحميت في النار ثم أمر الجنود والحراس بأن يلقوها هي وأولادها فيها حتى يموتوا جميعًا.

فطلبت من فرعون طلبًا واحدًا.. وهو أن يجمع عظامها وعظام أولادها بعد الموت ويجعلهم جميعًا في قبر واحد.

فوافق فرعون على ذلك.

وأمر الجنود بالقضاء عليها هى وأولادها.

فبدأوا يأخذون أولادها واحدًا واحدًا ويلقوه فى البقرة النحاسية ليموت أمام أمه.

وهى ترى هذا المشهد المفزع أمام عينيها وتصبر وتحتسب.

إلى أن جاء الدور على طفلها الصغير الذى تُرضعه فأخذوه من على صدرها فكادت أن تُفتن فأنطق الله طفلها الرضيع فقال: يا أمى اقتحمى فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

فاقتحمت وألقت بنفسها فى البقرة النحاسية فماتت.

فأكرمها الله (جل وعلا) بأن تحولت رائحة عظامهم بعد الحرق إلى رائحة طيبة شمَّها النبى ﷺ فى رحلة المعراج.

* * *

النبى ﷺ يرى الجنة والنار

وفى هذه الرحلة المباركة رأى النبى ﷺ الجنة والنار . . . لقد رأى النار . . ورأى بعض مشاهد العذاب لأهل النار . . . ورأى الجنة . . ورأى بعض مشاهد نعيم أهل الجنة .

هبوط النبى ﷺ إلى بيت المقدس

وبعد هذه الرحلة العظيمة عاد النبى ﷺ مع جبريل (عليه السلام) وهبطا مرة أخرى إلى بيت المقدس وهبط معه كل الأنبياء الذين رآهم النبى ﷺ فى السماوات السبع .

ودخلوا جميعًا بيت المقدس فصلى بهم النبى ﷺ إمامًا ليعرف الكون كله أن النبى ﷺ هو سيد الأولين والآخرين .

ثم ركب النبى ﷺ البراق وعاد إلى مكة مرة أخرى .

* وكان وقت هذه الرحلة العظيمة هو جزء يسير من الليل.

قريش تكذب النبى ﷺ

ولما عاد النبى ﷺ إلى مكة وحكى لبعض أصحابه عن تلك الرحلة وصل الخبر لكفار قريش فسخروا من النبى ﷺ وقالوا له: أتزعم أنك أُسرى بك من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عُرج بك إلى السماء السابعة ثم عُدت مرة أخرى فى جزء يسير من الليل.

فقال النبى ﷺ: «نعم».

فقال أحدهم: فهل تستطيع أن تصف لنا المسجد الأقصى؟

فوافق النبى ﷺ على ذلك.. وبدأ يصف لهم المسجد لكنه لم يستطع أن يكمل الوصف لأنه رأى المسجد ليلاً ولم يكن قد رأى كل شيء بوضوح... فأمر الله الملائكة فجاءت بالمسجد الأقصى حتى وضعته أمام النبى

ﷺ فأخذ النبى ﷺ ينظر إليه ويصفه لكفار قريش وهم يتعجبون من دقة الوصف رغم أنهم يعلمون أن النبى ﷺ لم يذهب إلى هناك.

موقف أبى بكر الصديق من رحلة الإسراء والمعراج

ولما سمع المشركون عن رحلة الإسراء والمعراج ذهبوا إلى أبى بكر الصديق رضي الله عنه وقالوا له: إن محمداً يزعم أنه أسرى به الليلة إلى المسجد الأقصى فى جزء من الليل ونحن نقطع هذه المسافة فى شهر كامل فماذا تقول يا أبا بكر؟

فقال أبو بكر: إن كان النبى ﷺ قال ذلك فقد صدق.. إنى لأصدقه فى خبر السماء أفلا أصدقه فى بيت المقدس.

* فلما رأى النبى ﷺ تكذيب كفار قريش له، قال لجبريل (عليه السلام): «يا جبريل إن قومى لا يصدقونى».

فقال جبريل: يصدقك أبو بكر وهو الصدِّيق.

النبى ﷺ يعرض نفسه على القبائل

حرص الرسول ﷺ على الاجتماع بالناس وتبليغهم دعوة الإسلام، وكان يتحرى مواضع اجتماع القبائل وخاصة فى موسم الحج وفترات عقد أسواق العرب، حيث كان يلتقى بذوى الشأن من رؤساء القبائل وغيرهم، وكان يطالب الرؤساء بحمايته دون أن يُكرِه أحدًا على قبول دعوته.

* ولم يعرف اليأس يومًا طريقه إلى قلب الرسول ﷺ ... فقد كان حريصًا على هداية الناس جميعًا وكان يتمنى أن يأخذ بأيدى الناس جميعًا إلى جنة الرحمن (جل وعلا).

* وفى تلك الفترة أسلم بعض الناس مثل: إياس بن معاذ وسُويد بن صامت ولكن النبى ﷺ كان يطمع فى إسلام المزيد من العرب القادمين إلى مكة.

إسلام ست نسمات من أهل يثرب

نحن نعرف أن يثرب (المدينة المنورة) كانت من أهم مدن أرض الجزيرة.. فهي معروفة بزراعة التمر.. وكان العرب يحبون التمر لأنه طعامهم الأساسى ومنه يصنعون الخمر أيضًا.

وكذلك فإن يثرب هى ممر القوافل التجارية لقريش.

* وكان أهل يثرب ينقسمون إلى قبيلتين هما الأوس والخزرج وكان بين القبيلتين نزاعات وحروب طاحنة دامت لسنواتٍ طويلة لأسبابٍ تافهة.. وكان من أشهر تلك الحروب (يوم بُعاث) وهو اليوم الذى قُتل فيه عدد كبير من الأوس والخزرج.

* وكان من مصلحة اليهود الذين يعيشون فى يثرب أن تظل الحروب قائمة بين الأوس والخزرج لأنهم كانوا يتاجرون فى السلاح فكلما هدأت نار الحرب بينهما

أشعلها اليهود حتى يستفيدوا من بيع السلاح للطرفين.

* وظلت الحروب دائرة بين الأوس والخزرج لسنوات طويلة حتى استنفذت أموالهم وقتلت رجالهم ويتّمت أطفالهم.. حتى إن بعضهم كان يتمنى أن يجد سبيلاً لوقف هذا النزيف من الدماء والأموال.

* وفي المقابل كان اليهود يخبرون أهل يثرب أن الأرض تتهيأ الآن لاستقبال نبي آخر الزمان... وأنهم - أي اليهود - سيتبعون هذا النبي... وكان اليهود يطمعون في أن يكون هذا النبي منهم.

وظل اليهود يقولون هذه البشارة لكل الناس حتى انتشر في ربوع يثرب كلها أن الأرض تتهيأ الآن لاستقبال نبي آخر الزمان.

* وفي موسم الحج من سنة ١١ من النبوة.. يوليو سنة ٦٢٠م خرج النبي ﷺ يدعو الناس إلى دين الله (جل وعلا) ولم يستجب له أحد.. ولكنه لم ييأس أبداً.

وبينما كان النبي ﷺ يبحث عمّن يكلمه ويدعوه

إلى الله وجد ستة من الشباب يحلقون رؤوسهم فى مكان يُسمى (العقبة).. وكانوا من عُـقلاء يثرب الذين تعبوا من شدة الحروب ومآسيها.

فكانوا مع موعد مع سعـادة الدنيا والآخرة.. فقد دخل عليهم النبى ﷺ يكلمهم ويدعوهم ويتلو عليهم القرآن ثم عرض عليهم الإسلام فأسلموا ولم يترددوا لحظة واحدة.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله.

قال بعـضهم لبـعض: يا قوم، تعلمـون والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا تسبـقنكم إليه، فأجابوه، فيمـا دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

وقالوا: إنا قد تركنـا قومنا، ولا قوم بينهـم من العداوة والشر مـا بينهم، فعسى أن يجمعـهم الله بك، فسنـقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك، ثم انصـرفـوا عن رسول الله ﷺ راجـعـين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا».

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا فى موسم الحج سنة ١١ من النبوة، وواعدوا رسول الله ﷺ إبلاغ رسالته فى قومهم.

وكان من جـراء ذلك أن جاء فى الموسم التـالى موسم الحج سنة ١٢ من النبـوة، يوليـو سنة ٦٢١م اثـنا عـشـر رجـلاً، فيـهم خمسـة من الستة الذين كـانوا قـد اتصلوا برسـول الله ﷺ فى العام الـسابق والسـادس الذى لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رئاب وسبعة سواهم.

* وتمت بيعة العقبـة الأولى... فقد بايعوا رسول الله ﷺ على ترك الشـرك وعـبـادة الأصنام والبـعـد عن المعاصى وعلى الإيمان والطاعة... ووعدهم النبى ﷺ بالجنة إن عاشوا على الإيمان والطاعة.

* ثم ودعهم الـنبى ﷺ بعد أن عاهـدهم وعاهدوه

على اللقاء فى العام التالى.

سفير الدعوة الأول إلى المدينة

وبعدما أتم وفد الأنصار بيعة العقبة الأولى وعادوا إلى المدينة رأى النبى ﷺ أن يبعث معهم رجلاً رحيمًا فقيهًا يعلمهم القرآن والسنة ويفقههم فى الدين... فأرسل معهم مصعب بن عمير الذى ضحى بحياة النعيم والرفاهية ليصبح عبدًا لله (جل وعلا) وداعيةً صادقًا.

* ذهب معهم مصعب بن عمير وأخذ يدعو الناس بالرفق والرحمة حتى أسلم على يديه عددٌ كبير من أهل يثرب (المدينة).. حتى لم يبق بيت فى المدينة إلا دخله الإسلام.

وقبل حلول موسم الحج التالى - أى: حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى مكة يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الفوز، ويقص عليه خبر

قبائل يثرب، ويبشره بأن جموعًا غفيرة دخلت فى الإسلام عن اقتناع مسَّ شغافهم، وبصرٍ أنار أفكارهم، وسوف يرى من وفودهم بهذا الموسم ما تقر به العين.

بيعة العقبة الثانية

وفى العام التالى رحل ثلاثٌ وسبعون رجلاً وامرأتان من أهل يثرب إلى النبى ﷺ ليبايعوه بيعة العقبة الثانية وهى أهم بيعة على مدار التاريخ الإسلامى.

وفى ظلمة الليل تسلل أهل يثرب إلى العقبة للقاء النبى ﷺ سرًا حتى لا تعلم قريش بهذه البيعة.

وجاء النبى ﷺ ومعه عمه العباس الذى كان فى هذه اللحظة مازال مشركًا لكنه أراد أن يطمئن على ابن أخيه رسول الله ﷺ.

* ويا لها من لحظة سعيدة لا أستطيع أن أصفها.. عندما التقى أهل يثرب برسول الله ﷺ.

وهنا قالوا: يا رسول الله على ما نبايعك؟

قال: «تبايعونى على السمع والطاعة فى المنشط والكسل، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن تقولوا لله، لا تخافوا فى الله لومة لائم، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة»[(١)].

فتقدموا جميعًا وبايعوه وفازوا بهذا الشرف العظيم.

شيطان يكشف المعاهدة

ولما تم إبرام المعاهدة اكتشفها أحد الشياطين وقام على أرضٍ مرتفعة وأخذ يصرخ من رأس العقبة على قريش: يا أهل المنازل، هذا محمد والصُباه[(٢)] قد أجمعوا على حربكم فعرف النبى ﷺ أن هذا هو شيطان العقبة فقال له: أتسمع يا عدو الله أما والله لأفرغن لك.

* ثم أمر النبى ﷺ أصحابه أن يرجعوا إلى رحالهم

(١) صحيح: رواه أحمد (٤٧ - ١٤) باقى مسند المكثرين، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (٦٣).

(٢) جمع صابئ - وكان يقال للرجل إذا أسلم فى زمن النبى أنه صابئ.

حتى لا ينكشف أمرهم...

فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذى بعثك بالحق: إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا؟

قال: فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم».

قال: فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها حتى أصبحنا.

الهجرة من مكة إلى المدينة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية وأصبح هناك وطن جديد يستطيع أن يأوى إليه النبى ﷺ وأصحابه.. كان لابد من الهجرة من مكة (التى رفض أهلها هذا الدين العظيم) إلى المدينة التى استقبلت النبى ﷺ ودعوته بكل حبٍّ وحفاوة.

* ولم تكن الهجرة فرارًا أو هروبًا من أذى المشركين بلى إنها قبل أى شىء امتثال لأمر الله (جل وعلا) فهو

الذى أوحى لنبيه بالهجرة.

وكذلك كانت الهجرة من أجل الهروب من الفتن والابتلاءات والأذى.. وكذلك كانت الهجرة من أجل نشر دعوة النبى ﷺ وتربية جيل فريد لينشر هذه الدعوة فى بقاع الأرض كلها.

لماذا الهجرة إلى المدينة؟

هناك أسباب واضحة لهذه الهجرة إلى المدينة.. وهناك أسباب وحِكم لا يعلمها إلى الله.

أما عن بعض الأسباب الواضحة لهجرة النبى ﷺ إلى المدينة دون غيرها:

* لأنها كانت مُحصنة من أكثر الجهات بالجبال والصخور السوداء بحيث أنه لا يستطيع أى جيش أن يغزوهم إلا من جهة واحدة وبذلك يسهل مقاومة أى جيش قادم إلى المدينة.

* أن أهل المدينة من الأوس والخزرج كانوا أصحاب قوة

وخبرة فى الحرب والفروسية وفنون القتال.

* أن بنى عدى بن النجار الذين يعيشون فى المدينة هم أخوال النبى ﷺ فكان تكريمًا لهم أن يكون النبى ﷺ معهم فى المدينة.

النبى ﷺ يأذن لأصحابه بالهجرة

وأوحى الله إلى النبى ﷺ بأن يأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة ولكن كان لابد من أن تكون الهجرة سرًا حتى لا يعلم المشركون بذلك فيمنعوهم من الهجرة.

وبدأت وفود المؤمنين تهاجر سرًا من مكة إلى المدينة.

ويا لها من خطوه تحتاج إلى صدقٍ وإخلاصٍ وعزيمة فقد تركوا الديار والأموال والأهل والأصحاب وفارقوا الأوطان حتى يفوزوا برضوان الله وجنته.

* وكان أول من هاجر: أبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة ولكن أهلها احتبسوها ومنعوها من الهجرة.

وأخذ أهل زوجها ابنها سلمة . . . وظلت تبكى فراق ابنها وزوجها قُرابة سنة حتى رآها أحد أبناء عمها فحزن لبكائها وذهب إلى أهلها وطلب منهم أن يتركوها تذهب إلى زوجها فوافقوا . . وعند ذلك قام أهل زوجها وردُّوا إليها ولدها سلمة فأخذته وهاجرت إلى المدينة . . وجمع الله شمل الأسرة مرة أخرى .

* وهاجر أصحاب الرسول ﷺ إلى المدينة سرًا إلاَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد خرج علانية أمام المشركين فأخذ سيفه ورُمحه ومضى نحو الكعبة فوجد المشركين جالسين عند الكعبة فطاف بها سبعة أشواط ثم أتى المقام فصلى ركعتين وقال للمشركين : من أراد أن تفقده أمه أو ترمل زوجته أو يصبح ولده يتيمًا فليلقنى خلف هذا الوادى . . فخافوا جميعًا ولم يتبعه رجلٌ منهم .

* وبعد هجرة أصحاب الرسول ﷺ أصبحت مكة خاوية من المؤمنين ولم يبق إلا عددٌ قليل ممن حبستهم قريش . . . وبقى أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب

ورسول الله ﷺ فقد كان ينتظر الأذن من الله (جل وعلا) بالهجرة.

اجتماع طارئ فى دار الندوة

وهنا أحست قريش بأن الخطر يحيط بها من كل جانبه.

فقد استطاع المسلمون أن يهربوا إلى المدينة ويخرجوا من قبضة قريش ولقد أسلم أكثر أهل المدينة فأصبحت دار أمان للمسلمين بل أصبحت دولة للمسلمين.

فما كان منهم إلا أن عقدوا اجتماعًا طارئًا فى دار الندوة التى كانوا يتشاورون فيها فى كل القرارات المصيرية.

لقد علموا أن النبى ﷺ ستنتشر دعوته وسيرجع مرة أخرى ليُدخلهم فى دينه أو يقاتلهم.. فلابد من قرار حاكم فى هذه المسألة حتى ينجوا من هذا الخطر الذى يحيط بهم.

فرأى بعضهم أن توضع القيود في يد النبي ﷺ ويوضع في السجن حتى يموت.

وهناك من رأى أن ينفوه من البلاد ولا يدخل مكة أبدًا ورفض الجميع هذين الاقتراحين لأنهم لو فعلوا ذلك ستنتشر دعوة النبي ﷺ في كل البلاد.

فقال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قَبيلة شابًّا قويًّا، ثم نُعطي كُلاًّ منهم سيفًا، فإذا خرج مُحمد من داره ضربوه ضربة رجلٍ واحدٍ فمات، فلا تَقْدر بَنُو هاشم على حرب العرب كلها؛ فيأخذون منا الدية[1].

ورضي المتآمرون بهذا الحل وفرحوا به فقد كان هو الحل الأمثل لتلك المشكلة التي حيرتهم.

وانصرفوا ليقوموا على إنفاذه وقد أشار القرآن إلى تدبير هذه الجريمة بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[2]

---

(١) والدية هي مبلغ من المال يُدفع لأهل القتيل.

(٢) سورة الأنفال: الآية: (٣٠).

ولكن الله لا يُسلم حبيبه ﷺ لأعدائه فقد أرسل إليه جبريل (عليه السلام) ليخبره بما يدبره المشركون وليأمره بأن يهاجر فى هذه الليلة ولا يبيت فى داره.

على رضي الله عنه ينام مكان النبى ﷺ فى ليلة الهجرة

وفى ليلة الهجرة اجتمع المشركون على باب رسول الله ﷺ يراقبونه حتى إذا نام انقضُّوا عليه وقتلوه جميعًا.

فلما رأى النبى ﷺ مكانهم أمر على بن أبى طالب أن ينام مكانه وأخبره بأنه لن يحدث له مكروه ولن يصيبه أذى.

ثم أمر عليًا بأن يرد كل الودائع والأمانات التى عنده لأصحابها.

* ويا له من أمرٍ عجيب فقد كانت قريش تحارب النبى ﷺ، وتحارب دعوته، وتريد أن تقتله... لكن الواحد منهم إذا كان عنده شيء ثمين يريد أن يحفظه فإنه كان

يتركه وديعة عند رسول الله ﷺ .

* وهنا ألقى الله النوم على هؤلاء المتآمرين فناموا. .

ثم خرج النبى ﷺ أمامهم بعد أن أخذ حفنه من التراب ووضعها فوق رءوسهم، وهو يَتْلُو قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾(1) .

ثم ذَهَبَ رسول الله ﷺ إلى دار أبى بكر الذى جَهَّزَ نَفْسَه للهجرة مع رسول الله ﷺ .

فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون هاهنا؟

قالوا: محمدًا.

قال: خيَّبكم الله، قد والله، خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟

قال: فوضع كل رجل منهم يدًا على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون، فيرون عليًا على الفراش.

(1) سورة يس: الآية: (9).

فظنوا أن النبى ﷺ ما زال نائمًا مكانه . . . فدخلوا وكشفوا الغطاء فوجدوا على بن أبى طالب فسألوه عن مكان النبى ﷺ فقال: لا أدرى قد تركنى هنا لأرد إليكم أماناتكم.

فقالوا: لقد صدقنا هذا الرجل الذى أخبرنا بخروج محمد ﷺ .

وبدأت هجرة الرسول ﷺ

وذهب النبى ﷺ إلى أبى بكر وأخبره بأن الله قد أذن له بالهجرة ففرح أبو بكر حتى بكى بكاء شديدًا من شدة الفرح.

وأعدَّ أبو بكر الراحلتين وأعدَّ الزاد والماء وبدأت رحلة الهجرة التى كانت أعظم حدث فى تاريخ الإسلام والمسلمين.

وخرج النبى ﷺ من مكة ومعه أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه حتى وصلا إلى غارٍ قريب من مكة.. وهو غار

«ثور» فدخل أبو بكر الغار حتى يطمئن على أنه ليس فيه شيء يؤذى النبى ﷺ .

فلما دخل إلى الغار مسحه ونظفه ووجد فى جدار الغار بعض الفتحات فقام وسدَّها كلها ما عدا واحدة فما كان منه إلا أن جلس على الأرض وسدَّها بقدمه ثم نادى على الرسول ﷺ ليدخل الغار آمنًا مطمئنًا.

ودخل النبى ﷺ وأراد أن ينام ويستريح فوضع رأسه على رجل أبى بكر ونام...

وفى تلك اللحظة جاء ثعبان أو عقرب ولدغ أبا بكر ومع ذلك لم يوقظ الرسول ﷺ من نومه واشتد الألم على أبى بكر فبكى بلا صوت ونزلت دموعه على خد النبى ﷺ فاستيقظ النبى ﷺ وسأله: «ما بك يا أبا بكر؟».

قال: لُدغت يا رسول الله.

فقال النبى ﷺ : «ولماذا لم تخبرنى؟».

فقال أبو بكر: خشيت أن أوقظك وأنت بحاجة إلى

النوم لكى تستريح يا رسول الله .

فقام النبى ﷺ فبصق على قدم أبى بكر فشُفيت بإذن الله ودعا له النبى ﷺ بالجنة .

* وفى هذه اللحظة كان المشركون يتتبعون آثار أقدام الرسول ﷺ وصاحبه . . . وبحثوا عنهما فى كل مكان حتى وصلوا إلى الغار الذى كان فيه النبى ﷺ وأبو بكر .

فنظر أبو بكر إلى أقدام المشركين فقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا .

فقال له النبى ﷺ بكل ثقة ويقين: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما .

* لقد حفظ الله نبيه ﷺ وأعمى أبصار المشركين عن رؤية النبى ﷺ وصاحبه رغم أنهم كانوا على بُعد أمتار قليلة منهما .

* ومكث النبى ﷺ وأبو بكر فى الغار ثلاثة أيام .

وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتى بالطعام إليهما وكانت

قد شقّت نطاقها (١) نصفين فجعلت الطعام فى أحدهما وربطت وسطها بالآخر ولذلك سماها النبى ﷺ بذات النطاقين وقال لها: «**أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين فى الجنة**».

* وكان عبد الله بن أبى بكر يأتى كل ليلة ويبيت مع النبى ﷺ ومع أبى بكر فإذا أصبح الصباح عاد إلى مكة وكأنه كان فيها لم يخرج منها حتى يستمع إلى كلام المشركين وما يدبرونه للنبى ﷺ وصاحبه ثم يعود إلى الغار فى الليل ليخبر النبى ﷺ بكل ما سمعه.

* وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يخرج بالأغنام لتمسح آثار أقدامها آثار أقدام عبد الله بن أبى بكر فلا يعرف أحدٌ شيئًا عن ذهابه إلى النبى ﷺ ولا يشك أحدٌ فى أمره.

* وكان النبى ﷺ وأبو بكر قد استأجرا رجلاً كافرًا اسمه (عبد الله بن أريقط) ليدلهما على الطريق فقد كان

(١) النطاق: هو حزام تربطه المرأة على وسطها.

ماهرًا بالطريق يحفظ طُرق الصحراء وشعابها.

وكانا قد دفعا إليه الراحلتين وواعداه أن يأتي إليهما بالراحلتين في غار ثور بعد ثلاثة أيام.

* ولما وصل عبد الله بن أريقط انطلق معه النبي ﷺ وأبو بكر وعامر بن فهيرة... وبدأت الرحلة إلى المدينة المنورة.

محبة تفوق الخيال

* وكان أبو بكر يسير أمام النبي ﷺ مرة وخلفه مرة وعن يمينه مرة وعن يساره مرة فتعجب النبي ﷺ وقال: «ما لك يا أبا بكر؟».

فقال أبو بكر: يا رسول الله أذكر الطلب - أي الكفار الذين يطاردونك - فأمشي خلفك ثم أذكر الرَّصَد - أي الجواسيس الذين يرصدونك ويُعدون لك الكمائن - فأمشي أمامك وعن يمينك وعن شمالك فأنا أخشى عليك منهم يا رسول الله.

فقال له النبي ﷺ : «يا أبا بكر لو كان هناك أذى يتنظرني لأحببت أن يكون بك دوني؟».

فقال أبو بكر: أجل يا رسول الله... فلئن قُتلتُ أنا فإنما أنا رجلٌ واحد.. ولئن قُتلت أنت ضاعت الأمة كلها.

* وبينما هم في الطريق إذ أحسَّ النبي ﷺ بشيء من التعب فنظر أبو بكر حتى رأى ظل شجرة ففرش للنبي ﷺ تحت ذلك الظل ثم قال للنبي ﷺ : اضطجع هنا يا رسول الله... فاضطجع النبي ﷺ .

ثم ذهب أبو بكر يبحث ويرى إذا كان هناك أحدٌ من المشركين يتبعهم فوجد راعي غنم فسأله: يا غلام هل عندك من لبن؟ قال: نعم. فأمره أبو بكر أن يحلب له بالأجر ثم أمره أن ينفض ضرعها من الغبار وأن ينفض كفيه من التراب ثم حلب اللبن وأخذه أبو بكر وانتظر حتى استيقظ النبي ﷺ فقال له: اشرب يا رسول.. فشرب.. ثم قال له: اشرب.

يقول أبو بكر: فشرب النبي ﷺ حتى ارتويت... يا له من حب لا يخطر على قلب بشر.

قصة سراقة بن مالك

* كانت قريش قد أعلنت عن جائزة كبيرة مقدارها مائة ناقة لمن يأتي برسول الله ﷺ وأبي بكر أو يدل عليهما... وكانت هذه الجائزة كبيرة جداً ولذلك طمع كثير من المشركين في أن يعرفوا مكان النبي ﷺ حتى يفوزوا بهذه الجائزة.

وكان من بين هؤلاء الناس الذين كانوا يسعون للفوز بهذه الجائزة رجل اسمه (سراقة بن مالك) الذي ما إن سمع بتلك الجائزة حتى أخذ يبحث عن النبي ﷺ في كل مكان حتى لحق برسول الله ﷺ وأبي بكر فلما اقترب منهما غاصت أقدام فرسه في الأرض فنادى على رسول الله ﷺ وطلب منه الأمان فأعطاه النبي ﷺ الأمان... لكنه أراد أن يغدر بالنبي ﷺ فغاصت أقدام

فرسه مرة أخرى فى الأرض فنادى على رسول الله ﷺ وطلب منه الأمان فأعطاه النبى ﷺ الأمان.

فلما أراد الغدر للمرة الثالثة غاصت أقدام فرسه فى الأرض فعلم أن هذا الرجل هو رسول الله ﷺ وأن الله (جل وعلا) هو الذى يحميه ويدافع عنه.. فأقبل على النبى ﷺ وأسلم فبشره النبى ﷺ بأنه سيلبس (سِوارَى كِسرى).

وقد حدث هذا بالفعل فى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قصة أم معبد الخزاعية

وفي الطريق عطش النبى ﷺ هو وأبو بكر فنزلا على امرأة تُسمى (أم معبد الخزاعية) وكانت تعيش فى خيمة على الطريق من مكة إلى المدينة... فسألوها لحمًا وتمرًا ليشتروا منها فلم يجدوا عندها شيئًا من ذلك.

وكان أهل هذا المكان يعانون فى هذا الوقت من

القحط والجدب... فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة قد جفَّ ضرعها وأوشكت على الموت فقال لها النبي ﷺ : «ما هذه الشاة يا أم معبد؟».

قالت: إنها شاة ضعيفة.

فقال لها: «هل بها من لبن؟».

فقالت: ليس بها لبن.

فقال لها: هل تأذنين لي أن أحلبها؟

فقالت له: بأبي أنت وأمي إن رأيت بها لبنًا فاحلبها.

فأخذ النبي ﷺ تلك الشاة فمسح بيده المباركة على ضرعها وسمَّى الله تعالى ودعا فامتلأ ضرعها باللبن فطلب النبي ﷺ إناءً فحلب فيه لبنًا كثيرًا وسقى أم معبد وسقى كل من معه ثم شرب هو آخرهم ﷺ ...

ثم حلب النبي ﷺ تلك الشاة مرة أخرى وترك اللبن كله عند أم معبد التي كانت تنظر إلى ما يحدث وهي في غاية الدهشة والتعجب.. ثم بايعها النبي ﷺ على الإسلام وانصرف...

وبعد فترة يسيرة جاء زوجها أبو معبد فلما رأى اللبن قال: من أين هذا اللبن يا أم معبد وليس عندك شاة تُحلب؟

قالت: لقد مرَّ بنا رجلٌ مبارك وفعل كذا وكذا.

فطلب منها أن تصفه له... فوصفته له وصفًا دقيقًا.

قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذى ذُكر لنا من أمره ما ذُكر، ولقد هممت أن أصاحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

وصول النبى ﷺ إلى المدينة المنورة

وفى المدينة كَاد القَلق يَفتك بالمهاجرين من مكة، والأنصار من أهل المدينة، إنهم يَخْرجون كُل يوم يَنتظرون رسول الله ﷺ وأبا بكر، ثم يَعودون مرة أُخرى.

ولا زالتِ الأوهامُ تُطاردهم، فربما استطاع المُشركون قتل رسول الله أو العثُور عليه، ومازالت ألْسِنتهم

وقُلوبهم تدعو لرسول الله بالنَّجاة، وأوشك بعضُهم أن يموت من فَرط الانتظار.

كل هذا ورسول الله في الطَّريق، وكان الزُّبير بن العَوَّام رضي الله عنه في تجارةٍ له، فقابل رسول الله وأبا بكر فكساهما ثَوْبَيْنِ أبيضَيْنِ، وفي هذه اللحظات اقترب رَكْبُ رسول الله من الدُّخول إلى المدينة، فإذا بيَهُودي كان على نَخلة له؛ يَرى رسول الله، حتى عرفه بِصفته وعلامته، فقال:

يا مَعْشر العرب، هذا نَبيُّكم الذي تَنتَظِرُون.

وارتفعت صَيْحات التكبير في كُلِّ مكان.

إن رسول الله في ثوبه الأبيض ونُوره الذي غَلب نُور الشمس؛ فأضاءت أركان المدينة كُلها، وخَرج الجميع لِيَرى النُّور المبين، فإذا بالمؤمنين الذين رأوا رسول الله بقلوبهم من قبل يرونه الآن بِعُيونهم.

وارتفعت أصوات الجواري بالغناء:

طَلَع البَدرُ عَلينا
مِن ثَنِيَّات الوَداع

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا
مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعٍ[1]

* وأقبل بعض الأنصار الذين لم يروا رسول الله ﷺ على أبى بكر يحيونه ويحسبون أنه الرسول.. فلما رأى أبو بكر ذلك خلع رداءه ووضعه على رأس رسول الله ﷺ خوفًا عليه من أشعة الشمس فعرف الناس فى هذه اللحظة رسول الله ﷺ فأقبلوا عليه يحيونه ويسعدون برؤيته.

وكان ذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول.

النبى ﷺ يؤسس مسجد قباء

وسار النبى ﷺ حتى نزل بقُباء فى بنى عمرو بن عوف فلما نزل أقام فيهم أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قُباء وهو أول مسجد أُسس بعد النبوة.

* ولما كان يوم الجمعة ركب النبى ﷺ ليدخل

(١) حياة محمد ﷺ / (ص: ١٥٢ - ١٥٣).

المدينة فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلى بهم الجمعة فى المسجد الذى فى بطن الوادى.

فرح أهل المدينة بمقدم رسول الله ﷺ

لما وصل النبى ﷺ المدينة وكان يركب ناقته (القصواء).

فكان كلما مرّ على بيت من بيوت الأنصار أمسكوا بزمام ناقته وقالوا: هلُمّ يا رسول الله إلى العدد والعُدة والمنعة والقوة.

فيقول لهم: دعوها فإنها مأمورة... أى أنها تسير بأمر الله ولن تقف إلا فى المكان الذى أراده الله (جل وعلا).

وفى هذه اللحظة صعد الرجال والنساء فوق البيوت وتفرق الغلمان والخدم فى الطرق ينادون: يا محمد يا رسول الله.. يا محمد يا رسول الله.

وكان النبى ﷺ يبادلهم نفس المحبة.

حتى إنه جعل ينظر إلى ولائد بنى النجار من حوله وهن ينشدن ويتغنين بمقدمه قائلاً: «أتحببتنى؟ والله إن قلبى ليحبكن».

* وقام الأحباش يلعبون بالحراب فرحًا لقدوم رسول الله ﷺ.

نزول النبى ﷺ فى دار أبى أيوب الأنصارى

والأنصار وإن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة، إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه، فكان لا يمر بدارٍ من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته: هَلُمَّ إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم: «**خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة**»، فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوى اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت فبركت فى موضعها الأول، فنزل عنها وذلك فى ديار بنى

النجار أخواله ﷺ.

وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رَحله، فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع رَحله»، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته، وكانت عنده[1].

وهكذا يكون الأدب مع رسول الله ﷺ

ولنترك المجال لأبي أيوب رضي الله عنه يحدثنا عن تلك الفرحة الشديدة التي ملأت عليه جوانحه وجوارحه لنزول النبي ﷺ عليه في بيته.

يخبر أبو أيوب أن النبي ﷺ لما نزل عنده في بيته نزل في الدور السفلي فطلب منه أبو أيوب أن يكون في الدور العُلوي فرفض النبي ﷺ وأخبره أن هذا أيسر له

(١) السيرة لابن هشام (٢/٢٤٣).

من أجل أن يستقبل الناس ويدعوهم إلى الله دون أن يجرح بيت أبي أيوب.. فوافق أبو أيوب وهو حزين لذلك... فكان يأمر زوجته أن تنام بجوار الحائط حتى لا يكونا فوق النبي ﷺ.

وفي يوم من الأيام كُسر إناء فيه ماء لأبي أيوب فخشي أبو أيوب أن يسقط الماء على رسول الله ﷺ فأخذ قطيفة كانت عند أم أيوب فشقَّها نصفين وأخذ هو وزوجته يمسحون الماء بالقطيفة.

ثم نزل أبو أيوب وقال لرسول الله ﷺ : لا ينبغي أن نكون فوقك أبدًا يا رسول الله.. فوافق النبي ﷺ وصعد إلى الدور العلوي.

* وظل النبي ﷺ لمدة سبعة أشهر في ضيافة أبي أيوب حتى بنى حُجَره ومسجده... وازدادت دار أبي أيوب بركة بنزول جبريل (عليه السلام) بالوحي على رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب.

* وكان أبو أيوب يرسل الطعام للنبي فإذا أكل النبي

ﷺ أكل أبو أيوب وزوجته من إناء النبي ﷺ إلتماسًا لبركة النبي ﷺ .

بناء مسجد النبى ﷺ

ولعلكم تذكرون حين وقفت القصواء فى ديار بنى النجار فعلم النبى ﷺ أن هذه الأرض مملوكة لغلامين يتيمين من أيتام المدينة فاشتراها رسول الله ﷺ من مال أبى بكر ثم ردَّ إليه هذا المال بعد ذلك.

وبدأ النبى ﷺ فى بناء المسجد... وكان هناك بعض مقابر المشركين فأزالوها ونظفوا ذلك المكان وبدأ المسلمون فى بناء المسجد مع رسول الله ﷺ وهم يحملون الأحجار وينشدون ويقولون: اللهم إنه لا خَير إلا خيرُ الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة.

وأصبح للمسلمين مسجدان: مسجد قُباء الذى أسس على التقوى من أول يوم.. ومسجد الرسول ﷺ الذى قال عنه الحبيب ﷺ :

«صلاة في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»[1].

* فصار هذا المسجد هو مكان العبادة والملتقى اليومي للرسول ﷺ مع أصحابه ليعلمهم ويربيهم.. فكان فيه تُقام الصلاة ومنه تخرج الجيوش وفيه يرفع بلالٌ الأذان.

حنين الجذع للنبي ﷺ

ولما بنى النبي ﷺ المسجد لم يكن له منبر يخطب عليه فكان النبي ﷺ يخطب على جذع نخلة... فجاءت امرأة من الأنصار وكان لها ولدٌ يعمل نجارًا فاستأذنت رسول الله ﷺ في أن يصنع ابنها منبرًا ليخطب عليه النبي ﷺ فوافق النبي ﷺ.

وفي الجمعة التالية وضع الصحابة الجذع جانبًا وجعلوا المنبر الجديد في القبلة فصعد النبي ﷺ ليخطب على

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١١٩٠) كتاب الجمعة، ومسلم (١٣٩٤) كتاب الحج.

المنبر فإذا بأصحاب الرسول ﷺ يسمعون صوت حنين الجذع وكأنه صوت ناقة فى حال الولادة فنزل النبى ﷺ واحتضن الجذع فسكت الجذع فقد كان حزينًا لفراق النبى ﷺ.

ربح البيع أبا يحيى

ولما أراد صهيب الرومى أن يهاجر خلف النبى ﷺ حاول المشركون أن يمنعوه وقالوا له: يا صهيب جئتنا صعلوكًا فقيرًا لا مال لك ثم بعد أن اغتنيت تريد أن تهاجر..

فقال لهم: أنتم تعلمون أنى من أمهر الرجال فى رمى السهام فأنا أستطيع أن أقضى عليكم جميعًا ولكن ما رأيكم فى أن أترك لكم مالى كله وتتركونى لألحق بالنبى ﷺ... فوافقوا.

فقال لهم: مالى فى المكان الفلانى... فذهبوا ليأخذوه وتركوه ليهاجر خلف النبى ﷺ.

فجاء جبريل إلى النبى ﷺ وأخبره بما فعله صهيب الرومى فلما وصل صهيب إلى المدينة قابله النبى ﷺ وهو يبتسم ويقول: ربح البيع أبا يحيى.. ربح البيع أبا يحيى.. ونزل قول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾(1).

كيف أسس النبى ﷺ للإسلام دولة

عندما جاء النبى ﷺ إلى المدينة كان يريد أن يقيم للإسلام دولة يستطيع من خلالها أن يبلغ دعوته إلى الكون كله.

ومن هنا قام النبى ﷺ بوضع تلك الدعائم لإقامة دولة الإسلام:

(١) صلة الأمة بربها:

وذلك من خلال بناء المسجد لتظهر فيه شعائر الإسلام التى حاربها المشركون كثيراً... ولتُقام فيه الصلوات التى

(1) سورة البقرة: الآية: (٢٠٧) - ومعنى يشرى: أى يبيع.

تربط المرء بربه (جل وعلا).

(٢) صلة الأمة بعضها بالبعض الآخر:

وذلك من خلال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فلقد آخى النبى ﷺ بين المهاجـرين والأنصار، وذلك لتقوية الجبـهة الداخليـة وزيادة ترابطها، وحتى يواسـى الأنصار إخوانهم المهـاجرين الذين تركوا ديارهم وأمـوالهم لنصرة دين الله وإعزاز شرعه.

وها هو سـعد بن الربيع الذى تعـايش مع كل آية من آيات القرآن ومع كل حـديث من أحاديث النبى ﷺ .. يحقق معنى الأخوة كما أرادها الحق - جل جلاله -.

فـعن أنس رضي الله عنه أنه قـال: قَـدِمَ علينا عـبد الرحـمن بن عـوف وآخى النبى ﷺ بينـه وبين سـعـد بن الربيع - وكان كثير المال - فقـال سعد: قد علمت الأنصار أنى من أكثرها مالاً سأقسم مالى بينى وبينك شطرين - نصفين - ولى امرأتان فانظر أعجبهـما إليك فأُطلقها حتى إذا حلَّت تزوجتها.

فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك. فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئًا من سمن وأقط[1] فلم يلبث إلا يسيرًا حتى جاء رسول الله ﷺ وعليه وضرٌ من صُفرة فقال له رسول الله ﷺ: «مهيم؟» قال: تزوجت امرأة من الأنصار، قال: «ما سُقت فيها؟» قال: وزن نواة من ذهب - أو نواة من ذهب - فقال: «أولِم ولو بشاة»[2].

(٣) صلة الأمة بالأجانب عنها ممن لا يدينون دينها:

* أما الأمر الثالث، وهو صلة الأمة بالأجانب عنها، الذين لا يدينون بدينها، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سنَّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تُعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي، والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل جوار دين آخر. وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلط هو رجل مخطئ.... عندما جاء النبي ﷺ إلى المدينة،

---

(١) الأقط: قطع الجبن.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٧٨١) كتاب المناقب، ومسلم (١٤٢٧) كتاب النكاح.

وجد بها يهودًا توطنوا ومشركين مستقرين.

فلم يتجه فكره إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام، بل قَبِل - عن طِيب خاطر - وجود اليهودية والوثنية، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة الند للند، على أن لهم دينهم وله دينه.

واتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو. وأقرت حرية الخروج من المدينة لمن يبتغي تركها، والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها [1].

* قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

ووادع رسول الله مَن بالمدينة من اليهود، وكتب بينه وبينهم كتابًا، وبادر حَبرهم [2] وعالمهم عبد الله بن سلام فدخل في الإسلام وأبى عامتهم إلا الكفر.

وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وحاربه الثلاثة فمنَّ على بني قينقاع، وأجلى بني

(١) بتصرف من فقه السيرة للشيخ الغزالي.

(٢) الحَبر: هو عالم من علماء اليهود.

النضـير، وقتل بنـى قريظة وسَبى ذريـتهم، ونزلت سورة الحشر فى بنى النضير، وسورة الأحزاب فى بنى قريظة(١).

* وكان هناك فريق آخر غيـر المسلمين واليهود.. هم المنافقون الذين يُظهرون الإيمان أمام النبى ﷺ وأصحابه ولكنهم يُخفون الكفر فى قلوبهم.. وكـان زعيم المنافقين هو عـبد الله بن أبى بن سلـول وكان المسلمـون يسمـونه برأس المنافقين.

* وكان سـبب عداء هذا الرجل للنـبى ﷺ أنه كان الناس فى المدينة قد اتفقوا على تتويجـه زعيمًا عليهم فلما جاء النبى ﷺ انـصرف الناس عن عبـد الله بن أبى بن سلول إلى رسول الله ﷺ فحقد هذا الرجل على النبى ﷺ حقدًا شديدًا وتآمر عليه كثيرًا.

* * *

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٥).

الإذن بالقتال

لما استقر النبى ﷺ بالمدينة وأيده الله بنصره وبعباده المؤمنين الأنصار.. وألَّف بين قلوبهم بعد العداوة التى كانت بينهم.

وهنا قامت اليهود والعرب وأظهروا العداوة للنبى ﷺ وأصحابه وكان الله (عز وجل) يأمر النبى ﷺ وأصحابه بالصبر والعفو والصفح من خلال الوحى وآيات القرآن...

فلما قويت شوكة أصحاب النبى ﷺ أذِن الله لهم حينئذ فى القتال ولم يفرضه عليهم فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1].

فبدأت الحرب الدِّفاعيةُ ضد كل عدو يُريد الهُجوم على المدينة،... كما كانت هناك بعض القَوافِل التِّجارية لقريش تَمُر على المدينة فى طريق ذهابها وعودتها إلى

---

(١) سورة الحج: الآية: (٣٩).

الشام ومنه.

والمعركـة التى كانت يَشْترك فـيها رسول الله سُميت بـ«الغَزْوَة» أمـا التى جرت فى حـياته ولم يشـترك فيـها، وأرسل أحد قُواده فكانت تسمى «السَّرِيَة».

وبعث رسول الله السرايا لِمُهاجـمة قَوافل قريش ففِى العام الأول الهجرى خرج حمـزة بن عبد المطلب لمهاجمة أبى جـهل فى قـافلةٍ لقريـش ولكن رَجُلاً من المُشركـين واسمـه مَجْدِى بن عمـرو حَجَـز بينهمـا فلم يجرِ قـتال بينهما.

ثم توالت السَّرايا، ومنها سـرية عُبيـدة بن الحارث بن عبـد المطلب، وسرية عـبد الله بن جـحش وغيـرهما من السرايا.

وانتهى العام الأول للهجرة بِبـعض الأحداث السَّعيدة، فقد وضعت أسماءُ بنت أبى بكر أول مَولُود فى المدينة بعد الهجرة وهو عبد الله بن الزُبير بن العوَّام رضي الله عنه.

وشُـرِعَ الأذانُ بعد أن اخـتَار المسلمـون كيف يَدْعُـون

ويُنادون للصلاة، فأرشَدهم الله تعالى إلى الأذان.

وكذلك هاجرت بناتُ النبيُّ ﷺ إلى المدينة.

وفى بداية العام الثانى للهجرة فَرض الله تعالى الزَّكاة، والصِّيام على المسلمين، وكذلك تَغيَّرت القِبْلةُ وتحولت إلى الكعبة بعد أن كانت تجاه بيت المقدس.

وحاول اليهود أن يُوقعوا الفِتْنة بين المسلمين، ولكن الله ثَبَّتَ أهْلَ الإيمان على الحقِّ فأطاعوا ربَّهم عز وجل، وحولّوا وجههم ناحية الكعبة(١).

❊ ❊ ❊

(١) حياة محمد ﷺ (ص: ١٧٠-١٧٢).

غزوة بدر الكبرى

من الناس مَن يظن أن غزوة بدر هي أول غـزوة غزاها رســـول الله ﷺ وهذا خطأ... فلـقـد كــانت أولى غـزوات الرســـول ﷺ هي غـزوة «وِدَّان» أو «الأبواء» وكانت في شهر صفر.

*** ثم غزوة بواط:**

قــاد الرسول ﷺ غـزوة شــارك فيـهـا مائتين من الصحابة، استهدفت اعتراض قــافلة تجارية لقريش يرأسها أمية بن خلف ويرعاها مائة رجل من قريش، وفيها ألفان وخمسمائة بعيـر محملة بأنواع البضائع - وقد وصل النبي ﷺ بقــواته إلى بواط، ثم رجع حـين لم يعـثـر على القافلة، ولم يلقَ حربًا، وكــان قد اسـتعـمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون[1].

(١) السيرة لابن هشام (١/٥٩٨).

*** ثم غزوة بدر الأولى (الصغرى):**

وكان سببها أن رجلاً من الأعراب اسمه «كُرز بن جابر الفهرى» أغار على المدينة وسرق بعض الإبل والمواشى.

فخرج رسول الله ﷺ يطارده مع عدد من الصحابة إلى أن وصلوا وادى سفوان من نواحى بدر، وتمكن كرز الفهرى من الإفلات من حملة المطاردة.

* ولكن المفاجأة الجميلة أن هذا الرجل أسلم بعد ذلك وأصبح من خيرة جنود المسلمين.

*** غزوة العشيرة:**

وغزا رسول الله ﷺ قريشًا لاعتراض قوافلها التجارية، وكان معه مائة وخمسون من أصحابه، فبلغ العشيرة بناحية يَنْبُع، وفاتته العير، ووادع فى هذه الغزوة بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة، ثم عاد إلى المدينة، ولم يلقَ حربًا [1].

* * *

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٩٤٩) كتاب المغازي.

ومن هنا كانت البداية لغزوة بدر الكبرى

قد أسلفنا في ذكر غزوة العشيرة أن عيرًا لقريش أفلتت من النبي ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام، ولما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة ابن عبيد الله، وسعيد بن زيد إلى الشمال، ليقوما باكتشاف خبرها فوصلا إلى الروحاء، ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير، فأسرعا إلى المدينة، وأخبرا رسول الله ﷺ بالخبر.

كانت العير مُركَّبة من ثروات طائلة من أهل مكة، ألف بعير موقرة بالأموال، لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلاً.

إنها فرصة ذهبية لعسكر المدينة، وضربة عسكرية واقتصادية قاصمة ضد المشركين لو أنهم فقدوا هذه الثروة الطائلة، لذلك أعلن رسول الله ﷺ في المسلمين قائلاً:

«هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن يجعلها لكم غنيمة».

* فخرج مع النبى ﷺ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ولم يكن معهم من الخيل إلا فَرَسان: فرس للزبير بن العوام وفرس للمقداد بن الأسود وكان معهم سبعون بعيراً يتناوبون على ركوبها.

* وكان أبو سفيان قد علم بأن النبى ﷺ قد جهَّز جيشًا لمهاجمة قافلته... وكان من أذكياء العرب... ولذلك قرر أن يُغيِّر الطريق الذى سيسلكه حتى ينجو من هجوم المسلمين عليه.

وفى نفس الوقت أرسل رجلاً اسمه «ضمضم بن عمرو الغفارى» إلى مكة ليخبرهم بأن النبى ﷺ وأصحابه يريدون مهاجمته والحصول على القافلة فلما علم أهل مكة بذلك نهضوا مسرعين من أجل إنقاذ أموالهم وتجارتهم ولم يبق فى مكة إلا أبو لهب - عم رسول الله ﷺ - الذى أرسل رجلاً آخر بدلاً منه لأنه

كان له عليه دَين.

* وبينما بلغ عدد المسلمين ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً.. كان عدد المشركين ألف رجل ومعهم مائتا فرس يقودونها.

* وواصل النبي ﷺ مسيره حتى وصل إلى بئر بدر... وهناك وصله الخبر بأن أبا سفيان قد نجا بالقافلة... وكاد الأمر أن ينتهي عند ذلك لكن أبا سفيان لما كتب إلى قريش أن ارجعوا وأخبرهم بنجاة العير التي خرجوا من أجلها فكادوا أن يرجعوا لولا أن أبا جهل قال: والله لا نرجع حتى نأتي بدرًا ونقيم فيها وننحر الإبل ونُطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا العبيد والجوارى وتسمع بنا العرب فلا يزالون يخافوننا بعد ذلك.

فوافق المشركون على رأى أبي جهل إلا قبيلة بني زُهرة الذين كانوا أخوال رسول الله ﷺ فقد رجعوا ولم يحاربوه.

ونَزل جَيش المشركين قُرب بِئْر بَدر فى مكان هو «العُدْوة القُصْوى»، أى: المكان الأعلى، وتأكدت الأخبار لدى رسول الله من أن المُشركين قد استعدوا للحرب؛ فلم يَعُد إلى المدينة.

وبدأ النبى ﷺ فى تجهيز الجيش وفى نفس الوقت أرسل استخباراته من جديد ليعرف أخبار العدو ويعرف عددهم وعُدتهم.

فلما وصلوا إلى بئر بدر وجدوا مولى لعقبة بن أبى مُعيط فسألوه: كم القوم؟

فقال: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم.. حتى جاء النبى ﷺ وسأله: «**كم ينحرون من الإبل كل يوم؟**».

قال: ينحرون عشراً كل يوم.

فقال ﷺ: «القوم ألفٌ».

وتَمثَّلَ الشيطان على هَيئة سُراقة بن مَالك فقال للمُشركين: إنى جَار لكُم فحاربوا؛ فاغتروا به، ولكنه حِينما بَدأت المعركة ولَّى الشيطان هَاربًا لما رأى الملائكة

تَنْصُرُ المسلمين.

* ولما عرف النبى ﷺ أن عدد المشركين ثلاثة أضعاف عدد المسلمين أراد أن يختبر مدى استعداد أصحابه لخوض هذه المعركة فقال: أشيروا علىَّ أيها الناس... فتقدم أبو بكر وعمر والمقداد فتكلموا وأحسنوا.

لكن المشكلة أن هؤلاء الثلاثة من المهاجرين... والنبى ﷺ يريد أن يعرف رأى الأنصار لأن عددهم كان أكثر من عدد المهاجرين ولأن بنود بيعة العقبة الثانية تُلزمهم بالدفاع عن النبى ﷺ داخل المدينة ولا تُلزمهم بذلك خارج المدينة.. وكانت غزوة بدر خارج المدينة... فقال: «**أشيروا علىَّ أيها الناس**».

قال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: «**أجل**».

قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن

معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ فى الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال: «**سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم**»[1].

ثم قال لصحابته: «**هُنا مَقتل أبى جهل، وهنا مَقتل عُقبة بن أبى معيط، وهنا مَقتل عُتبة وشَيبة ابنى ربيعة**»، ففرح المسلمون لأنهم يَعلمون صدق نَبيهم.

جعل النبى ﷺ على مَيمنة الجيش الزُّبير بن العوام، وعلى الميسرة المِقْدَاد بن الأسود، وأعطى لواءه إلى مُصعب بن عمير، وكانت راية المهاجرين مع على بن أبى طالب رضي الله عنه.

أما راية الأنصار فكانت مع سَعد بن مُعاذ رضي الله عنه، كما كان قَيس بن أبى صَعْصَعَة هو قائد مؤخرة الجيش.

(١) صحيح: انظر تخريج فقه السيرة للعلامة الألبانى رحمه الله (ص٢٢٣).

وخَرج الحُباب بن المُنذر فقال: يا رسول الله هل هذا المنزل[1] أنْزلَكهُ الله - يَعنى: عن طَريق الوحى- أم هو الرأىُ والحَرب والمكيدة؟

فقال رسول الله: «بل هو الرَّأى والحَرب والمَكيدة».

فقال: فليس هذا بالمنزل الجَيد، ولكن نَنْزِلُ قريبًا من الماء، فنبنى عليه حوضًا؛ فيكون معَنا الماء؛ فلا يشرب منه أحد من المشركين.

وكانت فكرة جيدة وحِيلة مَاكرة، نَفذها رسول الله ﷺ فى التوّ واللحظة.

ثم قام سعد بن مُعاذ فبنى عريشًا[2]، يَحتَمى فيه رسول الله من المشركين وقال:

- يا رسول الله إن أعزنا الله كان هذا ما أردنا، وإن كان غير ذلك لم يَصِلوا إليك فى عريشك هذا ولقد تركنا إخواننا هناك يحبونك كما نُحبك، فإذا هُزِمنَا عدت أنت إليهم.

(١) المكان الذى نزلنا فيه.
(٢) مكان كأنه المظلة من الشمس.

وأقبلت قُريش قريبًا من جَيش المسلمين فلما رآهم النبى ﷺ قال داعيًا ربه:

اللهم هذه قُريش أقبلت بخَيلها وخُيلائها[1] تكذبك وتكذب رسولك، اللهم نصرك الذى وعدتنى، اللهم أحنهم الغداة[2]، اللهم إن تهلك هذه العصابة - وهم المسلمون - فإنك لن تُعبد بعد اليوم فى الأرض أبدًا.

واشتد رسول الله فى دُعائه حتى أشفق عليه أبو بكر وقال: يا رسول الله أليس الله قد وعدك النصر؟! [3].

* وأنزل الله فى تلك الليلة مطرًا.. فكان على المشركين وبالاً شديدًا منعهم من التقدم وكان على المسلمين بركة فقد أذهب عنهم رجس الشيطان وثبّت الأرض من تحت أقدامهم وربط على قلوبهم وأذهب عنهم النوم والتعب... وسبق رسول الله ﷺ إلى الماء فصنعوا الحياض لينتفعوا بذلك الماء.

(١) كبريائها.

(٢) أهلكهم.

(٣) حياة محمد ﷺ (ص:١٨٦ - ١٨٨).

* وكان هناك مشهد مؤثر جدًا قبل القتال وهو أن النبي ﷺ كان يتخطى بعرجون فأصاب به سواد بن غُزية الأنصاري فقال: «يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني[1]»، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال: «استقد» قال: فاعتنقه فقبَّل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد؟».

قال يا رسول الله: «حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرًا».

* * *

(١) أقدني: خذ لي الحق من نفسك.

أول وقود المعركة

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان رجلاً شرسًا سيئ الخلق - خرج قائلاً: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنّه أو لأموتن دونه، فلما خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ﷺ والتقيا ضربه حمزة، فأطنّ قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن تبرّ يمينه، ولكن حمزة ثنّى عليه بضربه أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض(1).

* **وبدأت بعد ذلك أحداث المعركة:**

ولقد كانت الحروب قديمًا تبدأ بالمبارزة بالسيوف.

فخرج عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وقالوا: هل من مبارز؟

---

(1) الرحيق المختوم (ص ٢٢٦).

فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة، وهم عوف، ومُعوذ، أبناء الحارث - وأمهما عفراء - ورجل آخر يقال: هو عبد الله بن رواحة فقالوا: من أنتم؟

فقالوا: رهط من الأنصار.

قالوا: ما لنا بكم من حاجة.

ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا (١) من قومنا.

فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي»، فلما قاموا ودنوا منهم.

فبارز عبيدة - وكان أسن القوم، عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز (علي) الوليد بن شيبة.

فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما (علي) فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكرّ حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة.

---

(١) أكفاءنا: نظراءنا أو من يساووننا في المكان.

فقتلاه، وحَملا عُبيدة بن الحارث فإذا به يَموت شَهيدًا بعد ذلك من آثار هذه الضربة[1].

الله (عز وجل) يؤيدهم بملائكته

ثم حمى الوطيس، واستدارت رحى الحرب، واشتد القتال، وأخذ رسول الله ﷺ في الدعاء والابتهال، ومناشدة ربه عز وجل.

* عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً. فاستقبل نبي الله القبلة. ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز ما وعدتني. اللهم آتِ ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض» فما زال يهتف بربه. مادًّا يديه، مستقبلاً القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر. فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه. ثم التزمه من ورائه. وقال: يا

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٦٦٥) كتاب الجهاد، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود.

نبى الله! كفاك مناشدتك ربك. فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[1] فأمده الله بالملائكة[2].

* وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة ثم رفع رأسه فقال:

«أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع».

* وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: «قال لى النبى ﷺ ولأبى بكر يوم بدر «مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال، أو يكون فى الصف)».

* * *

(١) سورة الأنفال: الآية: (٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧٦٣) كتاب الجهاد والسير.

مصرع أبى جهل

وحـاول «أبو جهل» أن يـوقف سيل الهـزيمـة النازل بقومه، فأقبل يصرخ بهم، وغشاوة الغرور لا تزال ضاربة على عـينه: «واللات والعزى لا نرجع حـتى نفرقـهم فى الجبال.. خذوهم أخذًا».

فى غزوة بدر والمـعركة مـشتعـلة بين المسلمين وكـفار قريش، كان الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف واقفًا بين الصفوف، مُمسكًا بسـيفه، وبينما هو يستـعد للقتال جاءه غلامان صغيران، يحمل كل واحد منهما سيفًا.

قال أحدهما: يا عم أتعرف أبا جهل؟

قال عبد الرحمن: نعم، وماذا تريد منه؟

قـال أحـد الغـلامـين: علمتُ أنه يَـسُبُّ رسـول الله ﷺ ... والله لو رأيتُه لأضربنه بسيفى هذا.

وقال الغلام الآخر مثل كلام صاحبه.

تعجب عبد الرحمن بن عـوف من شجاعة الغُلامين،

وحين لمح أبا جهل يتجولُ بين الصفوف كالثور الهائج.

قال للغُلامين: هذا صاحبُكما الذى تسألانى عنه.

تقدم الغُلامان الصغيران من أبى جهل، ثم انقضَّا عليه بسيفيهما فضرباه ضربة شديدة فسقط قتيلاً، ثم انصرفا إلى النبى ﷺ فأخبراه بما فعلا.

فقال لهما النبى ﷺ : «أيكما قتله؟».

قال كل منهما: أنا قتلته.

قال النبى ﷺ : «هل مسحتما سيفيكما؟».

قال الغلامان: لا.

فنظر النبى ﷺ فى السيفين، وقال: «كلاكما قتله».

أئمة الكفر يقذفون فى القليب

وانتهت غزوة بدر بهزيمة المشركين ومقتل سبعين رجلاً منهم واستُشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً... وأسر المسلمون سبعين من المشركين.

فأمر النبى ﷺ بصناديد قريش وأئمة الكفر منهم أن

يُقذَفوا فى بئرٍ خَرِبة من آبار بدر ثم وقف ينادى عليهم:

«يا أبا جهل بن هشام! يا أمية بن خلف! يا عتبة بن ربيعة! يا شيبة بن ربيعة! أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًا».

فسمع عمر قول النبى ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يسمعوا وأنَّى يجيبوا وقد قُتلوا؟

قال: «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا» ثم أمر بهم فسُحِبوا فألقوا فى قليب بدر [1].

قتل النضر بن الحارث

وبعد أن أقام النبى ﷺ ببدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه ومعه الأسرى من المشركين والغنائم التى غنمها المسلمون منهم. وفى الطريق قسَّم النبى ﷺ الغنائم بين المسلمين بعد أن أخذ خُمس الغنائم.

(١) **صحيح:** رواه مسلم (٢٨٧٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث - وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر، وكان من أكابر مجرمي قريش، ومن أشد الناس كيداً للإسلام، وإيذاءً لرسول الله ﷺ فضرب عنقه علي بن أبي طالب.

قتل عقبة بن أبي معيط (في طريق العودة إلى المدينة)

هذا الشقي الذي آذى رسول الله ﷺ، وانفرد بما لم يفعله أحد ووضع رجله على عنق أطهر الخلق رسول الله ﷺ فقُطعت عنقه جزاءً وفاقًا.

لما أمر النبي ﷺ بقتل عقبة قال: أتقتلني يا محمد من بين قريش؟

قال: «نعم، أتدرون ما صنع هذا بي، جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقي وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عينيَّ ستندران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة، فألقاه على رأسي وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي».

وذهب عقبة إلى مزبلة التاريخ، وأطيح بعنقه جزاء كفره وعناده وحسده للإسلام ورسوله ﷺ .

بشائر النصر تصل إلى المدينة المنورة

ولما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة، ليحملا لهم البشرى.

أرسل عبد الله بن رواحة بشيرًا إلى أهل العالية، وأرسل زيد بن حارثة بشيرًا إلى أهل السافلة.

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا فى المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة، حتى أنهم أشاعوا خبر مقتل النبى ﷺ .

فلما بلغ الرسولان أحاط بهما المسلمون، وأخذوا يسمعون منهما الخبر حتى تأكد لديهم فتح المسلمين، فعمَّت البهجة والسرور، واهتزت أرجاء المدينة تهليلاً وتكبيرًا، وتقدم رؤوس المسلمين - الذين كانوا بالمدينة - إلى طريق بدر، ليهنئوا رسول الله ﷺ بهذا الفتح المبين.

وفاة رقية بنت رسول الله ﷺ

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة وهو فى غاية السعادة والسرور لهذا النصر الذى أكرمه الله به. . . وكان النبى ﷺ قد خلَّف عثمان بن عفان رضي الله عنه لأن زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ كانت مريضة جدًا. . فلما عاد النبى ﷺ من غزوة بدر علم أن رقية قد ماتت ودُفنت فاحتسبها عند الله ورضى بقضاء الله (جل وعلا) وشارك المسلمين فرحتهم بالنصر حتى لا تنقلب سعادتهم حزنًا. . . فيا له من نبى كريم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﷺ.

فداء الأسرى

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «فادى رسول الله ﷺ أسارى بدر، وكان فداء كل رجل منهم أربعة آلاف».



رحمة للعالمين

* وها هو نهر الرحمة وينبوع الحنان محمد بن عبد الله ﷺ يعلم أن أناسًا من المشركين لا يملكون ثمن الفداء وإذا به يجعل فداءهم أن يُعلموا أولاد الأنصار الكتابة ليسهل لهم طريقًا إلى الحرية وليعلموا قدر هذا الدين العظيم وقدر سيد المرسلين ﷺ.

فضل من شهد بدرًا من المسلمين

* عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم».

قال: «من أفضل المسلمين».

قال: «وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة»(١).

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٩٩٢) كتاب المغازى.

وجل اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1].

* وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل النار رجل شهد بدرًا أو الحديبية»[2].

فى أعقاب بدر

لما علم العرب بانتصار المسلمين على المشركين تأكدوا أن المسلمين أصبحوا قوة لا يُستهان بها.

* وأما أهل مكة من المشركين فقد انطووا على أنفسهم يداوون جراحهم ويستعيدون قواهم ويستعدون للثأر من المسلمين فلقد ازدادت كراهيتهم للإسلام والمسلمين بعد هزيمة بدر.

* وأما فى المدينة المنورة فقد كانت هناك مؤامرات تُدبَّر سرًا للنيل من المسلمين... فلقد أسلم بعض المشركين

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٧٨٨٠) باقى مسند المكثرين وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٧١٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٩٦) كتاب فضائل الصحابة.

واليهود ظاهرًا وقلوبهم قد امتلأت حقدًا وكفرًا. . . وعلى رأس هؤلاء رأس المنافقين عبد الله ابن أبى ابن سلول.

* ولقد مضت حياة المسلمين بعد غزوة بدر فى جهاد طويل فلم يستريحوا منذ هذه اللحظة فقد بدأت الملاحم والغزوات بينهم وبين المشركين.

إجلاء يهود بنى قينقاع

وفى ظل فرحة المسلمين بانتصارهم فى بدر لم يستحِ أولئك اليهود أن يقولوا لرسول الله عليه الصلاة والسلام: «لا يغرنَّك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة. أما والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنَّا نحن الناس!».

* وكان سبب إجلاء يهود بنى قينقاع أن امرأة مسلمة ذهبت إلى سوق بنى قينقاع لتبيع ذهبها فلما أعطت الذهب للتاجر اليهودى وجلست جانبًا جاءها يهودى خبيث وطلب منها أن تكشف وجهها فرفضت. . فأخذ طرفًا من ثوبها وعقده إلى أعلى الثوب دون أن تدرى فلما

قامت انكشف جزء من جسدها فصرخت ووقف اليهود يضحكون فقام رجل من المسلمين على هذا اليهودى فقتله.. فقام اليهود على هذا الرجل المسلم فقتلوه.. فلما علم النبى ﷺ بذلك أخرج يهود بنى قينقاع من المدينة وأجلاهم عنها.

غزوة أُحد

كانت مكة تحترق غيظًا على المسلمين مما أصابها فى معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى إن قريشًا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم فى بدر، ومنعوا من الاستعجال فى فداء الأسارى؛ حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم.

وعلى إثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين، تشفى غيظها، وتروى حقدها،

وأخذت في الاستعداد للخوض في مثل هذه المعركة.

وكان عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب وعبد الله بن أبي ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطًا وتحمسًا لخوض المعركة.

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان والتي كانت سببًا لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمدًا قد قتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه؛ لعلنا أن ندرك منه ثأرًا، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينارٍ (١).

* وبدأت قريش في تجميع القبائل ضد المسلمين مثل: كنانة وأهل تهامة والأحابيش حتى بلغ عدد الجيش ثلاثة آلاف رجل وثلاثة آلاف جمل ومائتا فرسٍ وسبعمائة درع... وبعد قتل سادة قريش في بدر جعلوا قيادة الجيش في أُحد لأبي سفيان بن حرب.

(١) الرحيق المختوم (ص٢٦٢).

النبى ﷺ يستشير أصحابه

ووصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ فى المدينة عن طريق العباس بن عبد المطلب الذى كان عينًا لرسول الله ﷺ فى مكة.

وهنا عقد رسول الله ﷺ مجلس شورى حتى يقرر ما سيفعله أمام هؤلاء المشركين.

* واستشار الرسول ﷺ أصحابه فى أن يخرج إلى المشركين أم يمكث فى المدينة.

وكان رأى النبى ﷺ أن يمكثوا فى المدينة ويتحصنوا بها فإذا دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الطرق... وتقاتل النساء من فوق البيوت... ووافقه على هذا الرأى رأس المنافقين عبد الله بن أبى ابن سلول.

ولكن كان هناك جماعة من فُضلاء الصحابة الذين لم يقاتلوا فى يوم بدر يرون أن الأفضل أن يخرجوا إلى المشركين... فلما رأى النبى ﷺ إصرارهم وافقهم

على ذلك وقام ولبس الدرع.. فندم بعض الصحابة وقالوا: لقد رددنا على رسول الله ﷺ رأيه... فذهبوا إلى الرسول ﷺ وقالوا له: يا رسول الله لو شئت لبقينا معك فى المدينة.. فقال النبى ﷺ: «ما كان لنبى أن يخلع لأمته (درعه) بعد أن لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه».

جحافل الشرك تتحرك

واستكملت جحافل الشرك عدتها وخرجوا فى ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم ثلاثة آلاف بعير ومائتا فرس وكانت القيادة العامة لأبى سفيان بن حرب وجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل وأما اللواء فكان إلى بنى عبد الدار وتحرك الجيش المكى نحو المدينة.

* * *

العباس يخبر النبى ﷺ بتحركات المشركين

وكان العباس (عم النبى ﷺ) يرقب تحركات قريش فلما علم بتحركهم نحو المدينة أرسل رسالة عاجلة ليخبر النبى ﷺ بذلك فأعطاها لرجل وأمره أن يُسرع السير إلى النبى ﷺ فقطع هذا الرجل تلك المسافة التى تبلغ خمسمائة كيلو متر فى ثلاثة أيام فوجد النبى ﷺ فى مسجد قباء فأعطاه الرسالة فقرأها له أُبى بن كعب رضي الله عنه وعاد الرجل إلى العباس رضي الله عنه مرة أخرى.

الحالة فى المدينة

وأصبح النبى ﷺ وأصحابه فى حالة استعداد تام حتى إن الرجل منهم كان لا يفارق سلاحه أبدًا..

وقام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة رضي الله عنهم بحراسة النبى ﷺ فكانوا يبيتون على بابه وعليهم

سلاحهم بينما كانت الحراسة على أبواب المدينة فى حالة تأهبٍ كامل حتى لا يفاجأهم العدو فى أى لحظة .

وخرج النبى ﷺ لملاقاة قريش

وخرج رسول الله ﷺ فى ألفٍ من الصحابة واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقى فى المدينة .

* وقسم النبى ﷺ جيشه إلى ثلاث كتائب:

١ - كتيبة المهاجرين ، وأعطى لواءها مصعب بن عمير .

٢ - كتيبة الأوس من الأنصار ، وأعطى لواءها أسيد بن حُضير .

٣ - كتيبة الخزرج من الأنصار ، وأعطى لواءها الحباب ابن المنذر .

* * *

انخذال المنافقين ورجوعهم

وقبل أن يصل النبي ﷺ وأصحابه إلى أحد عاد رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش من المنافقين بدعوى أن النبي ﷺ أطاع الوِلدان وخرج من المدينة مع أنه كان يرى عدم الخروج من المدينة...

وبذلك أصبح عدد المسلمين سبعمائة رجل فقط سيقاتلون ثلاثة آلاف مشرك.

الجيش الإسلامى يواصل سيره إلى العدو

وبعد انسحاب رأس المنافقين بثلث الجيش واصل النبى ﷺ سيره إلى العدو بباقى الجيش وهم سبعمائة مقاتل، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أُحد فى مناطق كثيرة، فقال: «مَن رجل يخرج بنا على القوم من كثب (أى: من طريق) لا يمر بنا عليهم؟».

فخرج به بعضُ الأنصار حتى سلَك في بستان لبعض المنافقين، وكان أعمى، فقام يحثُو التـرابَ في وجوه المسلمين ويقول: لا أُحِلُّ لَكَ أن تدخُلَ في بسـتاني إن كنتَ رسـولَ الله، فابـتدره القومُ ليقتلوه، فقال: «لا تقتُلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصرِ».

خطة رائعة للنبي ﷺ

لقد وضع النبي ﷺ خطة حكيمة قبل أن تبدأ غزوة أُحد فلقد جعل جبل أُحد وراء ظهره وجعل عليه خمسين من أمهر الرماة بالسهام وجـعل القيادة عليهم لعبد الله بن جُبـير وقـال لهم: «لو رأيتـمـونا تخطفنا الطير فـلا تبرحـوا أماكنكم حتى أرسل إليكم»(١).

* وبذلك حـمى النبي ﷺ ظهـر الجـيش من أن ينقضَّ عليه المشركون من الخـلف وجعل المدينة في وجهه حـتى إذا انهزم الأعـداء وأرادوا الفـرار كان فـرارهم إلى المدينة وهناك يقضي عليهم المسلمون.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٠٣٩) كتاب الجهاد والسير.

من يأخذ هذا السيف بحقه

ثم اقتربت الفئتان وأذن النبى ﷺ لرجاله أن يقاتلوا العدو، وبدأت مراحل القتال الأولى تثير الغرابة.

* وأخذ النبى ﷺ ينفث روح البسالة فى الجيش الإسلامى.

* **عن أنس رضي الله عنه قال:** إن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أُحد، فقال: «من يأخذ منى هذا السيف بحقه؟» فبسطوا أيديهم كل إنسان فيهم يقول: أنا أنا، فقال: «من يأخذه بحقه؟» فأحجم القوم فقال له سماك أبو دُجانة: أنا آخذه بحقه، قال فأخذه ففلق به هام المشركين»[1].

* **وكان شعار المسلمين فى هذه المعركة:** أَمِتْ أَمِتْ.

* وكان النصر فى بداية المعركة حليف المسلمين.. وبدأ المشركون فى الإنسحاب.. وكانت صدمة كبيرة للمشركين.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٧٠) كتاب فضائل الصحابة.

ولكن فجأة تغيرت الأمور وحدث ما لم يكن فى الحُسبان... فيا ترى ما الذى حدث؟

تعالوا بنا لنعرف سويًا ما الذى حدث.

غلطة الرماة التى غيرت سير المعركة

لقد علمنا كيف شدَّد النبى ﷺ على الرماة وقال لهم: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا أماكنكم حتى أرسل إليكم**».

لكن لما رأى الرماة أن المسلمين قد انتصروا على المشركين وأن المشركين قد فروا من ميدان الجهاد وتركوا الغنائم الكثيرة جعل الرماة ينزلون من على الجبل وهم يصرخون: الغنيمة... الغنيمة. وعبد الله بن جبير يقول لهم: يا قوم... أنسيتم ما قاله لكم رسول الله ﷺ. لكنهم نزلوا وتركوا الجبل ظنًّا منهم أن الغزوة قد انتهت.

فلما نزلوا وتركوا الجبل رآهم خالد بن الوليد - وكان مشركًا لم يُسلم بعد - عاد سريعًا هو والمشركون من

خلف الجبل وانقضُّوا على المسلمين فقتلوا منهم سبعين من خيرة الصحابة.. بل وأرادوا بعد ذلك أن يقتلوا النبى ﷺ ... حتى أُشيع بين الناس أن رسول الله ﷺ قد قُتل.

دفاع عن الرسول ﷺ

وفى هذه الغزوة جُرح الرسول ﷺ فى وجهه وكُسرت أسنانه فكانت ابنته فاطمة تغسل الدم عن وجه النبى ﷺ.

* وهنا أخذ النبى ﷺ ينادى على أصحابه حتى اجتمع حوله سبعة من الأنصار واثنان من المهاجرين وهما: سعد بن أبى وقاص وطلحة بن عُبيد الله.

وهنا اقترب المشركون يريدون قتل النبى ﷺ فقال النبى ﷺ لأصحابه: «**من يردهم عنا وهو رفيقى فى الجنة**».

فتقدم السبعة من الأنصار يدافعون عن رسول الله ﷺ حتى قُتلوا جميعًا... فقام النبى ﷺ وأعطى

السهام التي معه لسعد بن أبي وقاص وقال له: «ارمِ سعد فداك أبي وأمي».

ثم اقترب المشركون فقال النبي ﷺ: «من للقوم؟».

فقال طلحة: أنا يا رسول الله... وأخذ طلحة يقاتل وحده دفاعًا عن رسول الله ﷺ حتى جُرح تسعًا وثلاثين جرحًا وشُلّت أصابعه حتى قال عنه رسول الله ﷺ: «مَن أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»(1).

* وكان أبو طلحة الأنصارى يرمى المشركين بالسهام ويقول للنبي: «لا تنظر حتى لا يصيبك سهم يا رسول الله.. نحرى دون نحرك»(2).

* بل وكانت أم عمارة قد خرجت هي وزوجها وأولادها يجاهدون في سبيل الله... ولما أراد المشركون قتل النبي ﷺ وقفت تقاتل وتدافع عن النبي ﷺ

(1) صحيح: رواه الترمذى (٣٧٣٩) كتاب المناقب، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله في صحيح الجامع (٥٩٦٢).

(2) صحيح: انظر تخريج فقه السنة للعلامة الألباني رحمه الله (ص٢٦٠).

حتى أصابها اثنا عشر جرحًا.

* واستشهد فى هذه الغزوة سبعون من خيرة أصحاب النبى ﷺ وعلى رأسهم: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسول الله ﷺ واستشهد أنس بن النضر وعبد الله بن حرام والد جابر وحنظلة الذى غسلته الملائكة بعد موته وعبد الله بن جحش وعمرو بن الجموح وسعد ابن الربيع ومصعب بن عمير وغيرهم رضي الله عنهم.

* وأخذ أبو سفيان بن حرب يتفاخر على المسلمين بانتصارهم عليهم ويقول: يوم بيوم بدر والحرب سجال.

* **فقال له عمر:** لا سواء.. قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار.

* * *

النبى ﷺ يتثبت من عودة المشركين إلى مكة

ولما انتهت الغزوة خشى النبى ﷺ أن يتوجه المشركون إلى المدينة ليقتلوا النساء والأطفال فقال لعلى بن أبى طالب: اخرج وراء القوم وانظر ماذا يصنعون... فإذا تركوا الخيل وركبوا الإبل فاعلم أنهم عائدون إلى مكة.. وإذا هم ركبوا الخيل وساقوا الإبل فاعلم أنهم يريدون المدينة.

* فذهب علىٌّ خلفهم فرآهم قد ركبوا الإبل وساقوا الخيل فعلم أنهم عائدون إلى مكة.

* * *

من نوادر الحب والتضحية

وعـاد المسلمون بعـد أن دفنوا شـهداءهم... عـادوا بجراح وآلام شـديدة بعد أن فقدوا الأحـباب ورأوا الحزن على وجه رسول الله ﷺ.

ولما فـرغ رسول الله ﷺ من دفـن الشهـداء والثناء على الله والتضـرع إليه، انصرف راجـعًا إلى المدينة، وقد ظهرت له نوادر الحب والتـفانى من المؤمنات الصـادقات، كما ظهرت من المؤمنين فى أثناء المعركة.

* عن سـعد بن أبي وقـاص رضي الله عنه قال: «مرَّ رسـول الله ﷺ بامـرأة من بني دينار وقـد أصـيب زوجهـا وابنهـا وأخـوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحـد، فلمـا نُعوا لها، قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟

قالوا: خيـرًا يا أم فلان، هو بحـمد الله كـما تحبـين

قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟

قال: فأشير لها إليه، حتى إذا رأته.

قالت: كل مصيبة بعدك جلل! تريد صغيرة».

- يعني كل شيء يهون مادُمت سالمًا يا رسول الله ﷺ.

غزوة حمراء الأسد

لما عاد أبو سفيان وأصحابه نظر بعضهم إلى بعض وتلاوموا فيما بينهم وقالوا: لماذا لم ننتظر حتى نقضي على محمد وأصحابه فإنكم تركتموهم وسوف يجمعون لكم ويقاتلوكم مرة أخرى.. فهيا لنرجع ونقاتلهم ونقضي عليهم.

فلما بلغ رسول الله ﷺ ما قالوا نادى على أصحابه ودعاهم للخروج مرة آخرى فخرجوا معه وهم يعانون من الجراح الشديدة حتى وصلوا إلى مكان يُسمى (حمراء الأسد).

وجاء رجل اسمه (معبد بن أبي معبد الخُزاعي) إلى رسول الله ﷺ وأسلم دون أن تعلم قريش بإسلامه

فأمره رسول الله ﷺ أن يذهب إلى أبي سفيان ويخوفه من محاربة المسلمين الآن وأن يحتال حيلة ليرد أبا سفيان إلى مكة دون أن يقاتل.

فذهب معبد إلى أبى سفيان وقال له: يا أبا سفيان أدرك نفسك وجيشك وارحلوا الآن فإن محمداً وأصحابه قد جمعوا لكم جيشًا كبيرًا لن تقدروا عليه... فما كان من أبي سفيان إلا أن أخذ جيشه ورحل إلى مكة.

يوم الرجيع

وقبل أن أذكر تفاصيل حادث يوم الرجيع أود أن أقدم بين يدى هذا الحادث قصة لعاصم بن ثابت - وهو أحد الذين قُتلوا فى يوم الرجيع - لنعلم كيف يُكرم الله أولياءه وينصرهم إذا نصروا شرعه ودينه وسُنّة نبيه ﷺ.

* **فعاصم بن ثابت:** هو جد عاصم بن عمر بن الخطاب. كان ممن أبلى وجالد يوم أُحد.

وقد كان له مع (سُلافة بنت سعد) شأن أى شأن؛ فقد خرجت مشركة مع زوجها طلحة وأولادها الثلاثة: (مسافع، والجُلاَّس، وكلاب) إلى أُحد وبعد أنّ اشتد وطيس الحرب رأتهم مُمَددين على سفوح أحد مقتولين.

أمَا مسافع وكلاب، فكانا قد فارقا الحياة، وأما الجُلاس فوجدته وما تزال به بقية من دماء.

أكبّت سلافة على ابنها الذى يعالج سكرات الموت، ووضعت رأسه فى حجرها، وجعلت تمسح الدماء عن جبينه وفمه، وقد يبس الدمع فى عينيها من هول الكارثة، ثم أقبلت عليه وهى تقول: مَن صرعك يا بنى؟ فهمَّ أن يجيبها، لكن حشرجة الموت منعته، فألحّت عليه بالسؤال، فقال: صرعنى عاصم بن ثابت، وصرع أخى مسافعًا و... ثم لفظ آخر أنفاسه.

جُنَّ جُنون سلافة بنت سعد وجعلت تصرخ وتبكى وأقسمت باللات والعزّى ألا تهدأ لها لوعة، أو ترقأ لعينيها دمعة إلا إذا ثأرت لها قريش من عاصم بن ثابت، وأعطتها

جمجمته لتشرب فيها الخمر[١].

وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة، وشاع خبر نذرها فى قريش، وجعل كل فتى من فتيان مكة يتمنى أن لو ظفر بعاصم بن ثابت وقدّم رأسه لسلافة، حتى كان يوم الرجيع فى السنة الرابعة من الهجرة[٢].

تفاصيل يوم الرجيع

فى العام الرابع من الهجرة بعث النبى ﷺ سرية وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت فانطلقوا حتى إذا كانوا فى مكان بين (عُسفان ومكة) تبعهم بعض المشركين وأحاطوا بهم وأرادوا أن يخدعوهم فقالوا لهم: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل رجلاً منكم.

فقال عاصم بن ثابت: أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر.

فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا وسبعة آخرين.. وبقى

(١) صور من حياة الصحابة (ص: ٢٢-٢٣).

(٢) الجزاء من جنس العمل / د. سيد حسين (٢/٤١، ٤٢).

خُبيب وزيد ورجل ثالث فأعطاهم المشركون العهد والميثاق ألا يؤذوهم إن استسلموا فنزلوا إليهم فقام المشركون وأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر فقتلوه وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة.. فاشترى خُبيبًا بنو الحارث.. وكان خبيب هو الذى قتل الحارث يوم بدر فأسروه عندهم حتى قتلوه بعد ذلك.

احفظ الله يحفظك

هكذا قُتل كل هؤلاء ظلمًا وعدوانًا فى حادثة يوم الرجيع.

لكن أريد أن نرجع مرة أخرى إلى عاصم بن ثابت رضي الله عنه فإنه قبل أن يُقتل تذكَّر نذر (سُلافة) الذى نذرته وهو أنها نذرت أن تشرب الخمر فى رأس عاصم بعد قتله فقام عاصم وجرّد سيفه وهو يقول: اللهم إنى أحمى لدينك وأدافع عنه، فاحم لحمى وعظمى، ولا تُظفر بهما أحدًا من أعداء الله.

اللهم إنى حميت دينك أول النهار فاحمِ جسدى آخره.

فلما قُتل أراد المشركون أخذ رأسه ليعطوها لسلافة بنت سعد التى جعلت لمن جاءها برأس عاصم مائة ناقة.. فجاءت جماعة النحل والزنابير فثارت فى وجوه المشركين فلم يستطيعوا الاقتراب من جسد عاصم.

فقال المشركون: دعوه حتى يمسى فيذهب عنه جماعة النحل والزنابير فنأخذه.... فأرسل الله السيل فأخذ جسد عاصم إلى مكان بعيد لا يعرفونه.. وبذلك حمى الله جسد عاصم من أن يُشرب فيها الخمر.

❋ ❋ ❋

حادثة بئر معونة

ومع أن واقعة (يوم الرجيع) توجب على المسلمين أن يتبصروا قبل بعث أى وفد لنشر الإسلام بين القبائل البعيدة والمجاهل المريبة، إلا أن ضرورة نشر الدعوة جعلت النبى ﷺ ينظر إلى هذه التضحيات على أنها أمرٌ لابد منه.

* ومختصر هذه الحادثة أنه جاء رجل اسمه عامر بن مالك إلى رسول الله ﷺ بهدية فرفضها النبى ﷺ وقال: «إنى لا أقبل هدية مشرك».

فقال له عامر: يا رسول الله أريدك أن تبعث معنا من ينشر الإسلام ويُعلم الناس فى قبائل نجد.

فأرسل معه النبى ﷺ سبعين من القُرَّاء كانوا يحتطبون بالنهار ويُصلون بالليل... فلما وصلوا إلى مكان يقال له (بئر معونة) غدر بهم المشركون فقتلوهم

جميعًا... فلما علم النبى ﷺ بذلك أخذ يدعو عليهم فى صلاته لمدة شهر.

* وكان من بين الذين قُتلوا ببئر معونة (عامر بن فهيرة) مولى أبى بكر الصديق الذى كان معه فى هجرته مع الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة. وقد حدثت له كرامة فى هذه الحادثة أنه لما قُتل رفعته الملائكة إلى السماء ورآه بعض الناس.

* وكان من بين الذين قُتلوا أيضًا ببئر معونة (حرام بن ملحان) الذى لما قُتل أخذ الدم ونضحه على وجهه وهو يقول: فُزت ورب الكعبة.

* * *

ما الذى فعله (عمرو بن أمية) فى طريق عودته

ورجع عمرو بن أمية الضمرى إلى النبى ﷺ حاملاً معه أنباء المصاب الفادح: مصرع سبعين من أفاضل المسلمين...، تُذكِّر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا فى قتال واضح؛ وأولئك ذهبوا ضحية الغدر.

ولما كان عمرو بن أمية فى الطريق نزل فى ظل شجرة وجاء رجلان من بنى كلاب فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يعلم به عمرو بن أمية.



النبى ﷺ يدعو على قتلة القراء

لقد تألم النبى ﷺ لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة تألمًا شديدًا وتغلَّب عليه الحزن والقلق، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التى قامت بالغدر والفتك فى أصحابه.

عن أنس قال: «دعا النبى ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحًا»[1].

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨١٤) كتاب المغازى، ومسلم (٦٧٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

غزوة بنى النضير

وتفـصيل ذاك الغـزو أن النبى عليـه الصلاة والسـلام ذهب إلى منازل بنى النضير ليستـعين بهم فى دية القتيلين اللذين قتلهما «عمرو بن أمية» لدى مرجعه من بئر معونة، فلما فـاوضهم الرسول ﷺ فى الأمـر قالوا: نعم يا أبا القاسم نعـينك على ما أحببت مما استعنـت بنا عليه، ثم خلا بعـضهم ببعض فقـالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسـول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهـم قاعد - فـمَن رجل يعلو على هذا البيت فـيُلقى عليه صخرة فيُريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش ابن كعب فقال: أنا لذلك فصعـد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى (رضوان الله عليهم) فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السـماء بما أراد القوم، فقام وخـرج راجعًا إلى

المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم بما كانت اليهود أرادت من الغدر به،...

وأمر رسول الله بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم.

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار بالناس حتى نزل بهم.

وذلك في شهر ربيع الأول فحاصرهم ست ليالٍ ونزل تحريم الخمر.

قال ابن إسحاق: فتحصَّنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه: أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد، وتُعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها.

وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام[1].

(1) السيرة لابن هشام (٣/١٥٨-١٥٩).

* ونزلت سورة الحشر في بني النضير.

غزوة بدر الثانية

وقد تقدّم أن أبا سفيان قال عند انصرافه من أُحُد: مَوْعدكُم وإيانا العامُ القابلُ ببدر، فلما كان شعبانُ، من العام القابل، خرج رسولُ الله ﷺ لموعده في ألف وخمسمائة، وكانت الخيلُ عشرة أفراس، وحمل لواءه على ابن أبي طالب، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة، فانتهى إلى بدر، فأقام بها ثمانية أيام ينتظر المشركين، وخرج أبو سفيان بالمشركين من مكة، وهم ألفان، معهم خمسون فرسًا، فلما انتهوا إلى مر الظهران - على مرحلة من مكة -.

قال لهم أبو سفيان: إن العام عام جدب، وقد رأيت أني أرجعُ بكم، فانصرفوا راجعين واختلفوا الموعد، فسُميت هذه بدر الموعد، وتسمى بدر الثانية[1].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٥٥).

غزوة بنى المصطلق

وكان سبب هذه الغزوة أن النبى ﷺ بلغه أن (الحارث بن أبى ضرار) رئيس بنى المصطلق قد جهَّز جيشًا من قومه ومن بعض أحياء العرب لحرب رسول الله ﷺ.

فبعث النبى ﷺ رجلاً ليتأكد من هذا الخبر... فلما تأكد النبى ﷺ من صحة الخبر جهَّز جيشًا وخرج به حتى وصلوا إلى مكان يُسمى (المريسيع) وهو قريب منهم جدًا... فلما علم رئيس بنى المصطلق بقدوم الرسول ﷺ وجيش المسلمين امتلأ قلبه رعبًا وانصرفت عنه القبائل التى كانت ستقاتل معه فتركوه وحيدًا مع جيشه الضعيف.

* وقف النبى ﷺ وأصحابه وتهيئوا للقتال..

وصفَّ الرسول ﷺ أصحابه، وراية المهاجرين مع

أبى بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد، فكانت النصرة.

وانهزم المشركون، وقُتل من قُتل وسبى رسول الله ﷺ النساء والذرارى والنعم والشاء، ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد، قتله رجل من الأنصار ظنًا منه أنه من العدو[1].

* وكان (مسافع بن صفوان) زوج (جويرية بنت الحارث) من بين الذين قتلهم المسلمون فى هذه الغزوة.. فقد قتل المسلمون عشرة من المشركين وأسروا سبعمائة رجل وغنموا أموالهم ونساءهم وذراريهم ومواشيهم وكان من جملة السبى جويرية بنت الحارث - بنت زعيم القبيلة -.

* * *

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٥٧).

كان إسلامها وزواجها سببًا في حصول الخير لقومها

لما قسَّم النبي ﷺ سبايا بني المصطلق كانت جويرية بنت الحارث من نصيب الصحابي الجليل ثابت بن قيس رضي الله عنه فكاتبته على نفسها... أي طلبت منه أن يكتب عليها مبلغًا من المال لتُحضره له فتصبح حرة.

ثم ذهبت جويرية إلى رسول الله ﷺ لتستعينه في دفع هذا المال لثابت.

فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي قال: «فهل لك في خير من ذلك؟».

قالت: وما هو يا رسول الله. قال: «أقضي كتابتك وأتزوجك».

قالت: نعم يا رسول الله.... قال: «قد فعلت».

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله تزوج جويرية بنت الحارث فقال الناس: أصهار رسول الله لا يمكن أن نتركهم أسرى في أيدينا... فتركوهم جميعًا.

وبذلك أعتق المسلمون أهل مائة بيت من قبيلة بني المصطلق بسبب زواج جويرية من رسول الله ﷺ.. فكانت أعظم الناس بركة على قومها (١).

فلما رأى هؤلاء الناس أخلاق النبي ﷺ وأصحابه أسلموا لله (جل وعلا).

* * *

(١) حسن: رواه أبو داود (٣٩٣١) كتاب العتق، وأحمد (٢٥٨٣٣) باقي مسند الأنصار، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود.

غزوة الخندق (الأحزاب)

وكان سبب الغزوة أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أحد... وكان اليهود يحقدون على النبى ﷺ وأصحابه بسبب نفيهم إلى خيبر.

فخرج بعض سادتهم مثل (سلام بن أبى الحُقيق - سلام بن مشكم - كنانة بن الربيع) وغيرهم إلى قريش بمكة ليُحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ ووعدوهم بأن يقفوا بجوارهم وينصروهم.

* فوافقت قريش وخرج أبو سفيان فى أربعة آلاف وخرج معهم غطفان وبنو أسد وبعض القبائل التى تعادى النبى ﷺ... حتى بلغ عددهم عشرة آلاف من الكفار.



حفر الخندق

وسارع رسول اللـه ﷺ إلى عقد مجلس استشارى أعلى، تناول فيه خطة الدفاع عن كيان المدينة، .... وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى، اتفقوا على قرار قدمه الصحابى النبيل سلمان الفارسى رضي الله عنه .... قال سلمان: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك.

وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة، فوكَّل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعًا [1].

ولما كانت المدينة تحيط بها الجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال، وكان النبى ﷺ يعلم كخبير عسكرى حاذق أن زحف مثل هذا الجيش الكبير،

---

(١) الرحيق المختوم (ص: ٣٢٧).

ومهاجـمة المدينة - لا يمكن إلا من جهـة الشمال، اتخذ الخندق فى هذا الجانب.

وواصل المسلمون عمـلهم فى حفره، فكانوا يحفرونه طول النهار، ويرجعون إلى أهليـهم فى المساء حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة قـبل أن يصل الجيش الوثنى العرمرم إلى أسوار المدينة[1].

معجزة الرسول ﷺ فى حفر الخندق

وبدأ الصـحابـة فى حفـر الخندق وكـان النبى ﷺ يشاركهم فى الحفر.

وفى أثناء الحفـر كانت هناك صـخرة قوية لـم يستطع الصحـابة أن يحفروها فـذهبوا إلى النبى ﷺ ليخـبروه بذلك فـما كـان من النبى ﷺ إلا أنه ذهب معـهم إلى مكان الصخرة القوية وأخـذ المعول ونزل إليها وقال: «بسم الله» ثم ضـرب الصخـرة ضربة قـوية فكسـر ثُلثهـا وهو

(١) ابن هشام (٣/ ٣٣١).

يقول: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام.. والله إني لأنظر إلى قصورها الحُمر الساعة».. ثم ضرب الصخرة ضربة ثانية فكسر الثلث الثاني وهو يقول: «الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس.. والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض».

ثم ضرب الصخرة ضربة ثالثة فكسر ما تبقى منها وهو يقول: «الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن.. والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا»(1).

الطعام المبارك لجابر بن عبد الله رضي الله عنه

وفي أثناء الحفر كان المسلمون يعانون من شدة الجوع فنظر جابر بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فرأى آثار الجوع بادية على وجهه ﷺ فذهب جابر إلى زوجته وأمرها أن تذبح شاة وأن تُعد الطعام لرسول الله ﷺ فأطاعته وقالت له: لا تفضحني أمام رسول الله ﷺ فإن الطعام لا يكفي إلا لرسول الله ﷺ واثنين من أصحابه.

---

(1) رواه أحمد والنسائي وحسَّن إسناده الحافظ في الفتح (٧/ ٣٩٧).

فذهب جابر وقال للنبي ﷺ سرًا: قد أعددنا لك طعامًا يا رسول الله.

فقام النبي ﷺ ونادى على كل الصحابة وقال لهم: «يا أهل الخندق إن جابرًا قد صنع لكم طعامًا - وكانوا ألف رجل - ».

فوقف جابر يفكر: كيف سيأكل ألف رجل من طعام لا يكفي إلا لثلاثة.

فإذا بالنبي ﷺ يقول له: «لا تخبزا طعامكم حتى أجيء».

فذهب جابر ومعه النبي ﷺ وأصحابه إلى البيت..

فلما رأت زوجة جابر أن النبي ﷺ قد جاء ومعه الجيش كله أخذت تؤنب زوجها جابر.. فقال لها: لقد دعاهم النبي ﷺ وهو يعلم ما عندنا من الطعام.

فقالت: لا عليك.. ما دام النبي ﷺ هو الذي دعاهم.

فجاء النبي ﷺ وبصق على العجين وسمَّى باسم

الله وبارك ثم قال لهم: «الآن اخبزوا عجينكم».

فأعدوا الطعام ... وأخذ جابر يدعو الصحابة عشراً عشراً.. فيأكلون وما يزال إلى الطعام كما هو... حتى أكل ألف رجل ولم ينقص من الطعام شيء... وأكل النبى ﷺ ثم أعطى الطعام لجابر وأمره أن يأكل هو وزوجته وأن يهدوا لجيرانهم... كل ذلك وما زال الطعام كما هو ببركة النبى ﷺ.

موقف المؤمنين والمنافقين عند رؤية الأحزاب

لما شرع الرسول ﷺ والمؤمنون فى حفر الخندق.. كان المؤمنون يواصلون العمل فإذا كان لأحدهم حاجة ضرورية كان يستأذن رسول الله ﷺ.

أما المنافقون فقد كانوا يتظاهرون بأنهم يحفرون ثم يذهبون واحداً تلو الآخر بدون استئذان إلى بيوتهم فى الخفاء.

فأنزل الله تعالى فيهم قوله: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(1).

ونزل فى المؤمنين الصادقين ثناء الله عليهم: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(2).

* ولما أحاطت كتائب الشرك المدينة المنورة لم يشعر المؤمنون بالخوف بل ازدادوا ثقة ويقينًا فى نصر الله.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾(3).

أما المنافقون والذين فى قلوبهم مرض فقد أخذوا يسخرون ويقولون: وعدكم النبى ﷺ بقصور الحيرة

---

(1) سورة النور: الآية: (63).
(2) سورة النور: الآية (62).
(3) سورة الأحزاب: الآية: (22).

ومدائن كسرى وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تذهبوا لقضاء حاجتكم... فأنزل الله فيهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1].

خيانة اليهود

وانطلق حُيى بنُ أخطب إلى بنى قُريظة، فدنا من حصنهم، فَأَبى كعبُ بن أسد أن يفتح له، فلم يزل يكلمه حتى فتح له، فلما دخل عليه، قال: لقد جئتُك بعزّ الدهر، جئتُك بقريش وغطفان وأسد على قادتها لحرب محمد، فلم يزل به حتى نقض العهد الذى بينه وبين رسول الله ﷺ، ودخل مع المشركين فى مُحاربته، فَسُرَّ بذلك المشركون، وشرط (كعب) على (حُيى) أنه إن لم يظفُروا بمحمد أن يجيء حتى يدخُلَ معه فى حصنه، فيصيبه ما أصابه، فأجابه إلى ذلك، ووفَّى له به.

وبلغ رسولَ الله ﷺ خبرُ بنى قُريظة ونقضهم للعهد.

(١) سورة الأحزاب: الآية: (١٢).

والله لا نعطيهم إلا السيف

ولما رأى النبي ﷺ عشرة آلاف كافر قد أحاطوا بالمدينة خاف على أصحابه وأراد أن يعقد صُلحًا منفردًا بينه وبين غطفان على أن تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها على أن يعطيهم الرسول ﷺ ثُلث ثمار نخل المدينة.

واستشار النبي ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم - يعني غطفان - لا يطمع واحد منهم أن يأخذ منا ثمرة واحدة إلاَّ إذا اشتراها أو نزل ضيفًا عندنا... أتريد أن نعطيهم ثلث ثمار نخل المدينة بعد أن أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك وبه... والله لن نعطيهم إلا السيف... ثم خرج سعد بن معاذ لسادة غطفان وقال لهم: اذهبوا فوالله لا نعطيكم إلا السيف.

* * *

محاولة فاشلة... ومبارزة ماهرة

* وحاول المشركون اقتحام الخندق من مكان صغير فأخذ المسلمون يرشقونهم بالسهام حتى لم يستطع واحد منهم أن يعبر إلى المدينة.

* وقام على بن أبى طالب بمبارزة الفارس المغوار (عمرو بن عبد وُدّ) وبعد مبارزة عنيفة استطاع على بن أبى طالب أن يقتله.. ففرح المسلمون وكبروا.

* وأصيب سعد بن معاذ فى يوم الخندق بسهمٍ فقال: اللهم لا تُمتنى حتى تُقر عينى من بنى قريظة.

خيانة اليهود

وفى تلك الأثناء لما يئس المشركون من عبور الخندق ودخول المدينة.... وكان هناك عهد بين النبى ﷺ وبين يهود بنى قريظة الذين كانوا يعيشون فى المدينة على أنه إذا جاء عدو يريد غزو المدينة فلابد أن يقفوا سويًا ضد

هذا العدو أو أن يكون اليهود على الحياد فلا يقاتلوا مع أى طرف.

لكن اليهود هم اليهود... فخانوا العهد مع النبى ﷺ وأرادوا أن يفتحوا للمشركين الأبوب الخلفية ليدخلوا ويقتلوا النساء والأطفال والشيوخ ثم يقتلوا النبى ﷺ وأصحابه.

لكن النبى ﷺ علم بهذه المؤامرة الحقيرة.

نُعيم بن مسعود... ودوره الخالد

وهنا جاء رجل اسمه (نُعيم بن مسعود) وأسلم سرًا أمام النبى ﷺ ولم يعلم أحدٌ بإسلامه.

وكان نُعيم صديقًا لقريش وغطفان وصديقًا ليهود بنى قريظة.

فقال نُعيم: يا رسول الله، إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمُرنى بما شئت؛ فقال رسول الله ﷺ : «**إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فخذّل عنا إن استطعت، فإن**

الحرب خُدعة».

فخرج نُعيم بن مسعود حتى أتى بنى قُريظة، وكان لهم صديقًا فى الجاهلية، فقال: يا بنى قُريظة، قد عرفتم وُدّى إياكم، وخاصة ما بينى وبينكم.

قالوا: صدقت، لست عندنا بمتّهم.

فقال لهم: إنَّ قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإنَّ قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه.

وقد وقفتم معهم وعاديتم محمدًا... وإنهم سيأخذون ما يريدون ثم يتركوكم بعد ذلك لينتقم منكم المسلمون فلا تُقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تُناجزوه.

فقالوا له: لقد أشرت بالرأى.

ثم خرج حتى أتى قُريشًا، فقال لأبى سفيان بن حرب

ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودّي لكم وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيت عليَّ حقًا أن أبلغكم إياه نُصحًا لكم، فاكتموا عني، فقالوا: نفعل.

قال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، (من قريش وغطفان) رجالاً من أشرافهم فنُعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم. فإن بعثت إليكم يهودُ يلتمسون منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا.

ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلي وعشيرتي، وأحبّ الناس إليَّ، ولا أراكم تتهموني.

قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتَّهم.

قال: فاكتموا عني.

قالوا: نفعل، فما أمرك،.... ثم قال لهم مثلَ ما قال لقريش وحذَّرهم ما حذَّرهم.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل، فى نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، فاغدوا للقتال حتى نُناجز محمدًا، ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا. ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدًا حتى تُعطونا رُهْنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدًا، فإنا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل فى بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه... فلما رجعت إليهم الرسُل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم (نعيم بن مسعود) لحقٌ، فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجُوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة، حين انتهت الرسلُ

إليهم بهذا: إن الذى ذكر لكم نُعيم بن مسعود لحقٌّ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك رجعوا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمدًا حتى تُعطونا رُهْنًا، فأبوا عليهم... وخذَّل الله بينهم.

الدعاء مفتاح النصر

وهنا قام النبى ﷺ يدعو من قلبه لكى يرد الله الأحزاب عن المدينة فكان النبى ﷺ يدعو ويقول:

«اللهم مُنزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم»(١).

فسلط الله عليهم الريح الباردة الشديدة فجعلت تقلع خيامهم وتكفأ قدورهم.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٣٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٤٢) كتاب الجهاد والسير.

فأرسل النبي ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ليرى ماذا يصنع المشركون فتسلل حذيفة ودخل معسكر المشركين ليلاً متخفيًا فرأى أبا سفيان وهو يقول لأصحابه: يا معشر قريش لابد أن نرحل فقد خذلنا يهود بني قريظة وقد لقينا من تلك الريح ما ترون فهيا نرتحل فإني مرتحل... ثم قام وركب ناقته وقام الناس خلفه وعادوا إلى مكة مخذولين بعد أن سلط الله عليهم الريح وأرسل جُندًا من الملائكة يزلزلونهم ويُلقون في قلوبهم الرعب والخوف.

الآن نغزوهم ولا يغزوننا

وكانت هذه آخر مرة يأتي فيها المشركون لغزو المسلمين في عقر دارهم.

عن سليمان بن صرد قال: سمعتُ النبي ﷺ يقولُ حينَ أُجلي الأحزابُ عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسيرُ إليهم» (١).

(١) صحيح: رواه البخاري (٤١١٠) كتاب المغازي.

غزوة بنى قريظة

وكـان سبب هذه الغـزوة أن يهـود بنى قريظة خـانوا العـهـد مع رسـول الله ﷺ واتضـمـوا إلى الأحـزاب وأرادوا أن يُدخلوهم من الأبواب الخلفية حتى يقضوا على النبى ﷺ وأصحابه.

* فجاء جبريل (عليه السلام) إلى النبى ﷺ وطلب منه أن يذهب هو وأصـحابه إلى بنى قـريظة ليحـاصرهم ويحكم فيـهم بحكم الله (جل وعلا) وأخبره جـبريل أنه سيشاركـهم فى هذه الغزوة وسيُلقى الرعب فى قلوب بنى قريظة.

* **فقال النبى ﷺ لأصحابه:** «لا يُصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة»[1] وذهب الصـحـابة إلى بنى قريظة رغم ما كان بهم من الجوع والتعب.

(١) **متفق عليه:** رواه البخارى (٩٤٦) كتاب الجمعة، ومسلم (١٧٧٠) كتاب الجهاد والسير.

* وكان السبب فى غدر يهود بنى قريظة بعهدهم مع رسول الله ﷺ هو أن حُيى بن أخطب زعيم يهود بنى النضير هو الذى ذهب إلى كعب بن أسد زعيم يهود بنى قريظة وطلب منه أن يغدر بعهده مع رسول الله ﷺ وأن يفتح الأبواب للأحزاب لكى يقضوا على النبى ﷺ وأصحابه. فرفض كعب بن أسد فى بداية الأمر ولكنه وافق بعد إلحاحٍ شديد من حُيى بن أخطب واشترط عليه أن يكون معه فى الحصن فيصيبه ما أصابه.. فوافق على ذلك.

النبى ﷺ يحاصرهم.. وكعب بن أسد يشاورهم

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين ليلة حتى جَهَدَهم الحصار، وقذفَ اللهُ فى قُلوبهم الرعبَ.

وقد كان حُيىُّ بن أخطب دخل مع بنى قريظة فى حصنهم، حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاءً لكعب

ابن أسد بما كان عاهده عليه فلما أيقنوا بأن رسول ﷺ لن يتركهم قام زعيمهم كعب بن أسد وقال لهم: يا معشر يهود سأعرض عليكم ثلاثة أمور وعليكم أن تختاروا واحدة منها.

قالوا: وما هي؟

قال: الأمر الأول أن نؤمن مع محمد ﷺ ونتابعه فقد تأكدنا جميعًا أنه نبي.. وبذلك نأمن على دمائنا وأموالنا وأبنائنا ونسائنا.

فقالوا: لن نترك ديننا أبدًا.

قال: فإذا أبيتم الرأي الأول فتعالوا نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج ونقاتل محمدًا حتى يحكم الله بيننا فإن انتصرنا فهذا ما نريد وإن قُتلنا نكون بذلك لم نترك أبناءنا ونساءنا لهم.

قالوا: وما ذنب هؤلاء المساكين.. وهل هناك أحدٌ يفكر في قتل نسائه وأولاده.

قال: فما هو الرأي الأخير... أنتم تعلمون أن اليوم

هو يوم السبت وقد علم المسلمون أننا لا نفعل أى شيء في يوم السبت.. فما رأيكم فى أن نخرج لقتالهم فجأة عسى أن نقتلهم وهم يشعرون الآن بالأمان فى يوم السبت.

قالوا: كيف نقاتل يوم السبت... أما علمت أن أجدادنا لما خالفوا أمر الله وعملوا يوم السبت مسخهم الله وعاقبهم.

فقال لهم كعب بن أسد: لم يكن واحد منكم حازمًا أبدًا فى حياته... فانتظروا ما يفعله بكم محمد وأصحابه.

دعوه حتى يتوب الله عليه

وأرسل اليهود إلى النبى ﷺ ليبعث إليهم أبا لُبابة ابن عبد المنذر ليستشيروه فى أمرهم.. فأرسله النبى ﷺ إليهم فلما رأوه قاموا فى وجهه يبكون، وقالوا: يا أبا لُبابة! كيف ترى لنا أن ننزل على حكم محمد؟

فقال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه يقول: إنه الذَّبح، . . . ثم علِمَ من فوره أنه قد خان اللهَ ورسولَه، فمضى على وجهه، ولم يَرْجعْ إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد مسجد المدينة، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف ألا يحلَّه إلا رسولُ الله ﷺ بيده، وأنه لا يدخلُ أرضَ بني قريظة أبدًا، فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك، قال: «دَعُوهُ حتى يتُوب اللهُ عليه». . . ثم تاب الله عليه، وحلَّه رسول الله ﷺ بيده.

لقد حكمت فيهم بحكم الله

ولما سمع اليهود مقالة أبي لُبابة اختاروا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ لأنه كان صديقًا لهم في الجاهلية - قبل أن يُسلم - ظنًّا منه أنه سيخفف عليهم الحكم ويرحمهم.

فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأُتي به على حمار عليه

إكاف من ليف قد حُمل عليه وحَفَّ به قومه، وقالوا له (يعنى اليهود): يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك فلم يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد أتى لى أن لا يأخذنى فى الله لومةُ لائم فلما طلع قال رسول الله ﷺ : «احكم فيهم».

قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن تُقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم وتقسم أموالهم.

فقال رسول الله ﷺ : «لقد حكمت فيهم بحكم الله - عز وجل - وحكم رسوله».

ثم دعا سعد فقال: «اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئًا فأبقنى لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضنى إليك».

فانفجر جرْحه.



إسلام بعض يهود بنى قريظة

وفى ليلة نزول قريظة على حكم رسول الله ﷺ أكرم الله أربعة أنفار من اليهود فأسلم ثلاثة منهم ليسوا من بنى قريظة والرابع قُرظى.

تنفيذ الحكم فى يهود بنى قريظة

ثم خرج النبى ﷺ إلى سوق المدينة وأمر بحفر الحُفَر ثم أمر أن تُضرب أعناق الرجال من يهود بنى قريظة ثم يُلقَون فى تلك الحفر.

وكان عدد الرجال الذين قُتلوا قُرابة السبعمائة رجل.. من بينهم رئيسهم كعب بن أسد وعدو الله حُيى بن أخطب زعيم يهود بنى النضير الذى لما أخذوه ليقتلوه نظر إلى رسول الله ﷺ وقال له: «أما والله ما لُمت نفسى فى عداوتك أبدًا... فقتلوه».

* ثم بعد ذلك قسَّم النبى ﷺ أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين.

عرش الرحمن يهتز لموت سعد بن معاذ

ونعود مرة أخرى لسعد بن معاذ الذى انفجر جُرحه وبدأت دماؤه تسيل بشدة.. فجاء إليه رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر.

تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: فوالله إنى لأعرف بكاء رسول الله ﷺ من بكاء أبى بكر من بكاء عمر.

فقال له رسول الله ﷺ : «يا سعد جزاك الله خيراً فقد أنجزت ما وعدته ولَيُنجزنَّك الله ما وعدك».

* وفاضت روح سعد بن معاذ رضي الله عنه.

وفى تلك اللحظة يأتى جبريل (عليه السلام) ليخبر النبى ﷺ بأن عرش الرحمن قد اهتز لموت سعد بن معاذ.

وفى تلك اللحظة صاحت أم سعد حزنًا على وفاة ابنها فقال لها النبى ﷺ : «يا أم سعد: ألا يجف دمعك

ويذهب حُزْنُك بأن تعلمى أن ابنك هو أول من ضحك الله له واهتز له العرش».

ثم أخبر النبى ﷺ أصحابه بأن الله (عز وجل) أرسل سبعين ألف ملك ليحملوا جنازة سعد بن معاذ. . . وأن هؤلاء الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل اليوم وإنما نزلوا لتشييع جنازة سعد بن معاذ.

* * *

صلح الحديبية

وفى العام السادس من الهجرة رأى رسول الله ﷺ في منامه أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك... ونحن نعلم أن رؤيا الأنبياء وحى.

فلما أخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك اشتاقت قلوبهم إلى أن يذهبوا لأداء العمرة فأمرهم النبى ﷺ بأن يتجهزوا للخروج إلى العمرة فاجتمع معه ألف وخمسمائة رجل ولم يكن معهم إلا السيوف فقط؟

* * *

تخلف المنافقين عن الخروج

فالأعراب المنتشرون حول يثرب، ومن كان على شاكلتهم من المنافقين.

عرفوا أن أهل مكة سوف يقاتلون محمدًا عليه الصلاة والسلام، وأنه إذا أبى إلا زيارة البيت - كما أعلن - فلن تدعه قريش حتى تُهلكه أو تَهلك هى فهى عمرة محفوفة بالأخطار فى نظرهم، والفرار منها أجدى!!

ولو فُرض أن الرسول عليه الصلاة والسلام نجح فى مقصده هذا، فالاعتذار إليه بعد عودته سهل.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾(1).

---

(1) سورة الفتح: الآيتان: (11، 12).

وخرج المؤمنون الواثقون مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، وذلك في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة وساروا مُلبين يطوون الطريق إلى البيت العتيق فلما بلغوا «عسفان» على مرحلتين من مكة جاء الخبر إلى المسلمين أن قريشًا خرجت عن بكرة أبيها، وقد أقسمت ألا يدخل بلدهم مسلم، وأن جيشهم استعد للنضال، ويقود خيله خالد بن الوليد(١) .

المسلمون يتحركون إلى مكة

وتحرك المسلمون تجاه مكة وهم يحلمون بتلك اللحظة الخالدة التي يطوفون فيها بالبيت.

فلما وصلوا إلى مكان يُسمى بذي الحليفة شقَّ النبي ﷺ أحد سنام الجمل حتى يعلم الناس أنه (هَدى) وأنه ﷺ جاء للعمرة ولم يأت للقتال.

❋ ❋ ❋

(١) فقه السيرة / للغزالي (ص: ٣٦٦: ٣٦٧).

محاولة قريش صد المسلمين عن البيت

ولما سمعت قريش بخروج النبى ﷺ وأصحابه إلى مكة عقدت مجلسًا استشاريًا قررت فيه صد المسلمين عن البيت.

وعلم النبى ﷺ أن خالد بن الوليد - وكان وقتها مشركًا - قد أخذ معه مائتى فارس ليصدوا المسلمين عن البيت.

معجزات النبى ﷺ فى الحديبية

ولما نزل المسلمون عند بئر الحديبية وكان الماء قليلاً فأخذ الصحابة يشتكون من شدة العطش فدعا النبى ﷺ بإناء من ماء منها فتوضأ ثم مضمض ودعا ثم صبَّه فى البئر ففاضت بالماء... فشرب الناس وتوضؤوا.

* بل وجاء فى رواية أخرى أنه لما عطش الناس فى الحديبية وضع النبى ﷺ يديه فى إناء وسمَّى باسم الله

ودعا فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون فشرب الناس وتوضؤوا.

قريش تتفاوض مع النبى ﷺ

وبدأت المفاوضات بين النبى ﷺ وقريش ولكن لم تكن هناك نتيجة إيجابية لتلك المفاوضات.

* وفى تلك الأثناء أراد بعض شباب قريش الطائشون أن يفعلوا أى شيء يكون سببًا فى إشعال نار الحرب لأنهم لا يريدون سلامًا ولا صلحًا مع النبى ﷺ وأصحابه.

فقرروا أن يخرجوا ليلاً ويتسللوا إلى معسكر المسلمين، ويُحدثوا أحداثًا تشعل نار الحرب، وفعلاً قد قاموا بتنفيذ هذا القرار، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم ليلاً فهبطوا من جبل التنعيم، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين، غير أن محمد بن مسلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعًا... ورغبة فى الصلح أطلق سراحهم النبى ﷺ وعفا عنهم، وفى ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ

عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ (١)(٢)(٣).

* وهكذا عفا النبى ﷺ عنهم وخلى سبيلهم.

النبى ﷺ يرسل عثمان بن عفان إلى قريش

ولم يكلّ الحبيب ﷺ ولم يملّ فى سبيل تحقيق السِّلم، وإخماد نار الحرب التى يشعلها الكافرون.

* فها هو ﷺ يدعو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله إنى أخاف قريشًا على نفسى، وليس بها من بنى عدى أحد يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها، وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز منى: عثمان بن عفان.

قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائرًا لهذا البيت

(١) سورة الفتح: الآية: (٢٤).

(٢) الرحيق المختوم (ص: ٣٦٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨٠٨) كتاب الجهاد والسير.

معظمًا لحرمته، فخرج عثمان حتى أتى مكة، ولقيه أبان بن سعيد بن العاص فنزل عن دابته وحمله بين يديه وردفه خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فَطُفْ به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ [(١)].

ويا له من أدبٍ عظيم وحبٍ شديد لشخص رسول الله ﷺ.

* ومما يُذكر هنا أن مكة لم تَخْلُ من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات.

كانت قلوبهم معلقة بالمسلمين المحجوزين خارج مكة.

لقد انتشر الإسلام سرًا في بيوت كثيرة طالما تشوقت إلى اليوم الذى تستطيع فيه أن تُظهر إيمانها، وتتخلص من سطوة الكفر عليها.

(١) رواه أحمد في المسند (٤/ ٣٢٣).

ويظهر أن عثمان اتصل بأولئك النفر المؤمن وبشَّرهم بقرب الفتح، فرأت قريش أن عثمان قد عدا الحدود المعهودة، وأمرت باحتباسه عندها، وشاع - لدى المسلمين - أن عثمان قُتل[1] .

إشاعة مقتل عثمان... وبيعة الرضوان

واحتبسته قريش عندها - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم فى الوضع الراهن، ويبرموا أمرهم، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة - وطال الاحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان قُتل، فقال رسول الله ﷺ لما بلغته تلك الإشاعة: «لا نبرح حتى نقاتل القوم» ثم دعا أصحابه إلى البيعة، فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفروا، وبايعته جماعة على الموت.

* * *

(١) فقه السيرة للغزالى (ص: ٣٧٢).

بيعة الرضوان

وتحت شجرة الحديبية قال النبى ﷺ لأصحابه: «من يبايعنى على الموت» فقاموا جميعًا تحت الشجرة ومدوا أيديهم وبايعوا على الموت وأخذ النبى ﷺ بيده الأخرى وقال: «هذه عن عثمان».

وكانت بيعة هامة وذلك لأن المسلمين كانوا بلا سلاح ومع ذلك بايعوا رسول الله ﷺ على الموت.

وسُميت هذه البيعة: بيعة الرضوان التى قال عنها الحق (جل وعلا): ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(١).

ولما تمت البيعة جاء بعد ذلك عثمان فبايعه وفرح المسلمون فرحًا شديدًا بعودة عثمان سالمًا من عند قريش.

(١) سورة الفتح: الآية: (١٨).

سَهُل لكم من أمركم

وهنا أرسلت قريش سُهيل بن عمرو لإبرام الصلح مع النبي ﷺ.

فلما جاء سُهيل قال النبي ﷺ لأصحابه: «سَهُل لكم من أمركم».

فقال له سُهيل: هيا لنكتب بيننا وبينك كتابًا.

فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم».

فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب (باسمك اللهم) كما كنت تكتب.

فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم».

ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ».

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما

صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب «محمد بن عبد الله».

فقال النبى ﷺ : «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى،... اكتب: محمد بن عبد الله...».

فقال له النبى ﷺ : «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به».

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، . . . فكتب.

فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا.

قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟

* وكان الذى يكتب بنود الصلح على بن أبى طالب رضي الله عنه.

* * *

شروط الصلح وبنوده

وكانت شروط صلح الحديبية وبنوده تتلخص فيما يلي :

(١) وضع الحرب لمدة عشر سنين فلا يحاربهم النبي ﷺ ولا يحاربونه .

(٢) من أتى رسول الله ﷺ ليُسلم بغير إذن وليه فإن النبي ﷺ يرده عليهم وأما من جاء من المسلمين يريد أن يلحق بالمشركين فلهم أن يقبلوه .

(٣) أن يرجع النبي ﷺ وأصحابه هذا العام .. فإذا كان العام القادم خرج المشركون من مكة وتركوها للنبي ﷺ وأصحابه لمدة ثلاثة أيام ليطوفوا بالبيت .. على ألا يدخلوها إلا بالسيوف فقط .

❋ ❋ ❋

اعتراض عمر بن الخطاب على بنود الصلح

لقد كان المسلمون يعلوهم الحزن الشديد لسببين اثنين:

الأول: أن النبى ﷺ كان قد أخبرهم أنهم سيطوفون بالبيت.

والثانى: أن النبى ﷺ قَبِل ضغط قريش فى هذا الصلح.

وصارت مشاعر المسلمين لأجلهما جريحة، بحيث غلب الهم والحزن على التفكير فى عواقب بنود الصلح، . . . لعل أعظمهم حزنًا كان عمر بن الخطاب، فقد جاء إلى النبى ﷺ وقال: يا رسول الله: ألست نبى الله حقًّا؟!

قال: «بلى».

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟!

قال: «بلى».

قلت: فَلِمَ نُعطى الدنيَّة [1] فى ديننا إذًا ؟!

قال: «إنى رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصرى».

قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنَّا سنأتى البيت فنطوف به؟

قال: «بلى، فأخبرتك أنَّا نأتيه العام؟».

قال: قلت: «لا».

قال: «فإنك آتيه ومطُوفٌ به».

قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقًّا؟

قال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

قال: بلى.

قلت: فلِمَ نُعطى الدنيَّة فى ديننا إذًا؟

قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصى ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق.

---

(1) أى: لماذا نتنازل لهم ونعطيهم أكثر من حقهم.

قلت: أليس كان يحدثنا أنَّا سنأتى البيت ونطوف به؟

قال: بلى، فأخبرك أنه تأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومُطوفٌ به.

قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً[1] - أى: عمل أعمالاً صالحة كثيرة ليُكفِّرَ عن مجادلته للنبى ﷺ -.

قصة أبى بصير رضي الله عنه

«... ثم رجع النبى ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - مسلمًا مهاجرًا.

فأرسلوا فى طلبه رجلين فقالوا: العهد الذى جعلت لنا فيه، فدفعه إلى الرجلين.

فخرجا به حتى بلغا به ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمرٍ لهم.

فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك

(١) **صحيح:** رواه البخارى (٢٧٣٤) كتاب الشروط.

يا فلان هذا جيدًا، فاستلَّه الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد لقد جربت به، ثم جربت.

فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى مات و فرَّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ: «لقد رأى هذا خوفًا».

فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال: قُتل والله صاحبى وإنى لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبى الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتنى إليهم، ثم أنجانى الله منهم.

فقال النبى ﷺ: «ويل أمه مُسعر حرب لو كان له أحد»(١) فلما عرف ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر(٢) قال: وينفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذى عقد أبوه سُهيل الصلح مع رسول الله ﷺ . . . وكان قد أسلم وحبسه أبوه حتى لا يلحق بالمسلمين فاستطاع أن يهرب فلحق بأبى بصير، . . .

---

(١) لو كان له أحد ينصره، ويؤازره على إيقاد نار الحرب لأثار الفتنة وأفسد الصلح.

(٢) سيف البحر: ساحل البحر وهو طريق قريش إلى الشام.

وجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت فيهم مجموعة من الرجال.

فوالله لا يسمعون بقافلة خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم أحدًا جاءه مسلمًا أبدًا. . . فإذا جاءه رجل مشرك يريد أن يُسلم فله أن يقبله ولا يرده للمشركين. فأرسل النبى ﷺ إليهم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾(١).

❋ ❋ ❋

(١) سورة الفتح: الآية: (٢٤).

كان صلح الحديبية فتحا عظيما

لقد ظن المسلمون فى بداية الأمر أن صلح الحديبية كان فيه تنازل للمشركين.. لكن مع مرور الأيام تيقن المسلمون أن صلح الحديبية كان فتحًا عظيمًا.

فمن المعلوم أن أكثر الناس كانوا يخافون من بطش قريش وإيذائها فلما علم الناس أن هناك هدنة بين المسلمين والمشركين لمدة عشر سنوات وأن أرض الجزيرة قد انتشر فيها الأمن والأمان أقبل أكثر الناس على الإسلام وأسلموا.

ولذلك نجد أن الذين أسلموا بعد صلح الحديبية كانوا أضعاف الذين أسلموا قبل ذلك.

والدليل على ذلك: أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية ومعهم ألف وأربعمائة - أو ألف وخمسمائة - ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف موحد.

مكاتبة الملوك والأمراء

وفى السنة السادسة من الهجرة وبعد عقد صلح الحديبية مع قريش بدأ النبى ﷺ يكتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام فكتب إلى النجاشى ملك الحبشة.. وكتب إلى كسرى ملك فارس.. وكتب إلى قيصر ملك الروم.. وكتب إلى المقوقس ملك مصر.. وكتب إلى غيرهم من الملوك والأمراء.



غزوة خيبر

لقد كان هناك ثلاثة أحزاب يحاربون المسلمين:

(١) كفار قريش.

(٢) اليهود (بنى قينقاع - بنى النضير - بنى قريظة).

(٣) قبائل نجد.

فلما عقد النبى ﷺ الصلح مع قريش لم يبق له إلا اليهود وقبائل نجد.

فأما قبائل نجد فقد كانت أقلها خطراً على المسلمين.

فأراد النبى ﷺ أن يتخلص من كيد اليهود.

وكان النبى ﷺ قد أجلى يهود بنى قينقاع وقضى على يهود بنى قريظة الذين خانوا العهد مع رسول الله ﷺ فقتل رجالهم وقسَّم أموالهم ونساءهم وأولادهم على المسلمين.

وأما يهود بنى النضير فقد أجلاهم النبى ﷺ إلى

خيبر عندما علم أنهم حاولوا قتله.

فاتخذ يهود بنى النضير خيبر وكرًا للدسائس والمؤامرات... وكانوا هم الذين جمعوا الأحزاب ضد المسلمين وأثاروا بنى قريظة على خيانة العهد مع الرسول ﷺ وهم الذين حاولوا قتل النبى ﷺ... فكان لابد من القضاء على يهود بنى النضير وذلك من خلال غزو خيبر.

* * *

المسير إلى خيبر

قال المفسرون: إن خيبر كانت وعداً وعدها الله تعالى بقوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾(١) يعني: صلح الحديبية، وبالمغانم الكثيرة (خيبر).

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية، أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلاً: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٢).

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر، وأعلن أن لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة.

* * *

---

(١) سورة الفتح: الآية: (٢٠).

(٢) سورة الفتح: الآية: (١٥).

رأس المنافقين يخبر اليهود بمقدم النبي ﷺ

وقد قام المنافقون يعملون لليهود، فقد أرسل رأس المنافقين (عبد الله بن أبي) إلى يهود خيبر: أن محمداً قصد قصدكم وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعُدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عُزَّل لا سلاح معهم إلا قليل، فلما علم ذلك أهل خيبر، أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان، يستمدونهم لأنهم كانوا حُلفاء يهود خيبر، ومُظاهرين لهم على المسلمين، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين[1].

وفي الطريق قال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: يا عامر ألا تُسمعنا من شعرك.

فأنشد عامر بن الأكوع قائلاً:

(١) الرحيق المختوم (ص:٣٩٣).

اللهمّ لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبّت الأقدام إن لاقينا

فسمعه رسول الله ﷺ وهو يُنشد هذه الكَلمات فقال: «يرحمه الله»[1] - أي: عامر بن الأكْوَع -.

فقال رجل من المسلمين: وجبت يا رسول الله.

وكان الصَّحابة يعلمون أن من يقول له رسول الله (يرحمك الله) سوف يموت شَهيدًا في المعركة وقد كان.

* * *

(1) **متفق عليه:** رواه البخاري (٦١٤٨) كتاب الأدب، ومسلم (١٨٠٢) كتاب الجهاد والسير من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

الجيش الإسلامى يتحرك إلى أسوار خيبر

بات المسلمون قريبًا من خيبر فى تلك الليلة الأخيرة التى بدأ فى صباحها القتال ولم تشعر بهم اليهود فى تلك الليلة.

ويظهر أن اليهود ظنوا أن زحف المسلمين صوب غطفان فلم يعيروا الأمر التفاتًا بل أصبحوا غادين إلى حقولهم بمساحيهم ومكاتلهم حتى فوجئوا بالمسلمين يسيرون نحوهم، فارتدوا إلى حصونهم فزعين، وهم يقولون: محمد والخميس!

فقال النبى ﷺ: «خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنْذَرين»[1].

* * *

(١) **متفق عليه:** رواه البخارى (٤١٩٧) كتاب المغازى - ومسلم (١٣٦٥) كتاب الجهاد.

وأمرهم شورى بينهم

وكان النبى ﷺ اختـار لمعسكره منزلاً، فأتاه حُباب ابن المنذر فـقـال: يا رسول اللـه أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله، أم هو الرأى فى الحرب؟ قال: «بل هو الرأى».

فـقـال: يا رسـول الله إن هذا المنزل قـريب جـدًا من حصن (نطاة)، وجميع مقاتلى خـيبر فيـها، وهم يدرون أحوالنا، ونحن لا ندرى أحوالهم، وسهـامهم تصل إلينا وسهامنا لا تصل إليهم، ولا نأمن من بياتهم، وأيضًا هذا بين النخلات، ومكان غائر، وأرضٌ وخيـمة، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتـخذه معسكرًا، قال ﷺ: «الرأى ما أشرت»، ثم تحول إلى مكان آخر.

ولما دنا من خـيبـر وأشرف عليـها قـال: «قفـوا»، فوقف الجيش فقال: «اللهم ربَّ السماوات الـسبع وما أظللن، ورب الأرضـين السبع ومـا أقللن، ورب الشـياطين ومـا أضللن، فإنا لنسألك خيـر هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فـيها ونعوذ بك

من شر هذه القرية وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا بسم الله»[1]

حصون خيبر

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين، شطر فيها خمسة حصون:

١- حصن ناعم.

٢- حصن الصعب بن معاذ.

٣- حصن قلعة الزبير.

٤- حصن أُبيّ.

٥- حصن النزار.

والحصون الثلاثة الأولى تقع في منطقة يقال لها (النطاة)، وأما الحصنان الآخران فيقعان في منطقة تُسمى بالشق.

---

(١) رواه الطبراني (٨/ ٣٣) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وحسنه العلامة الألباني في تحقيق فقه السيرة (١/ ٣٤٠).

أما الشطر الثانى ويُعرف بالكتيبة، ففيه ثلاثة حصون فقط:

١- حصن القموص (كان حصن ابن أبى الحقيق من بنى النضير).

٢- حصن الوطيح.

٣- حصن السلالم.

وفى خيبر حصون وقلاع غير هذه الثمانية، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع فى مناعتها وقوتها.

والقتال المرير إنما دار فى الشطر الأول منها، أما الشطر الثانى فحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلّمت دونما قتال»[1].

❊ ❊ ❊

(١) الرحيق المختوم (ص: ٣٩٧).

صاحب الراية الذى يفتح الله على يديه حصون خيبر

وفى غزوة خيبر كان على بن أبى طالب رضي الله عنه قد تخلف عن النبى ﷺ لأنه كان به رمد فى عينيه... فقال فى نفسه: أنا أتخلف عن رسول ﷺ.

هذا لا يكون أبدًا.. فخرج حتى لحق بالنبى ﷺ.

فلما كان مساء الليلة التى فتحها الله فى صباحها قال رسول الله ﷺ: «**لأعطينَّ هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**».

قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم، أيُّهم يُعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يُعطاها، فقال: «**أين على بن أبى طالب؟**».

فقيل: هو يا رسول الله يشتكى عينيه.

فقال: «**فأرسِلوا إليه فأتى به**».

فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له، فبرأ حتى

كأن لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الراية، فقال عليٌّ: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟.

فقال له رسول الله ﷺ: «يا علي إذا وصلت إلى هناك فادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيه.... فوالله؛ لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعم»[1][2].

(علي) يقتل (مرحب اليهودي)

وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه الحصون الثمانية هو حصن ناعم، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجي، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودي الذي كان يُعدُّ بألف رجل.

خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن، ودعا اليهود إلى الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٢١٠) كتاب المغازي، ومسلم (٢٤٠٦) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) حُمر النعم: أي خيرٌ لك من الإبل الحمراء التي كانت تساوي عند العرب ثروة كبيرة.

وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة.

فتقدم عامر بن الأكوع ليبارزه... فقُتل عامر رضي الله عنه.

وهنا تقدم على بن أبى طالب رضي الله عنه وبارزه مبارزة شديدة حتى ضربه على رأسه فقتله ثم فتح الله على يديه حصون خيبر حصنًا بعد حصن... حتى فُتحت كل الحصون وبذلك تم فتح خيبر. وأرسل ابن أبى الحُقيق إلى رسول الله ﷺ فصالح رسول الله ﷺ وطلب منه ألا يقتل من فى الحصون وأن يترك الذرية على أن يخرج اليهود من خيبر ويتركوا للمسلمين الأرض والمال وكل شيء فاشترط عليهم النبى ﷺ ألا يكتموا شيئًا ولا يُخبئوا شيئًا.

* * *

تقسيم الغنائم

وأخذ النبى ﷺ يُقسم الغنائم على أصحابه ﷺ وكانت غنائم خيبر هى أكبر غنائم حصل عليها المسلمون فى كل غزواتهم.

وهنا أراد المهاجرون أن يردوا كل ما أخذوه من الأنصار عرفانًا بالجميل ولكن الأنصار لم يقبلوا أى شىء فقد كانوا يحبون إخوانهم المهاجرين حبًا جمًا... ولا عجب فى ذلك فقد غرس النبى ﷺ فى قلوبهم المحبة الخالصة لوجه الله (جل وعلا).

❋ ❋ ❋

إن تصدَق الله يَصدقك

* عن شدَّاد بن الهاد رضي الله عنه: «أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ، فآمن به، واتَّبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم النبي ﷺ سبيًا، فقسم، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟

قالوا: قَسْمٌ قسمه لك النبي ﷺ، فأخذه، فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا؟

قال: «قسمته لك».

قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى ههنا (وأشار إلى حلقه) بسهم، فأموت، فأدخل الجنة.

فقال: «إن تصدق الله يصدقك»، فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به إلى النبي ﷺ يُحمل قد

أصابه سهم حيث أشار.

فقال النبي ﷺ: «أهو هو؟».

قالوا: نعم.

قال: «صدق الله، فصدقه»، ثم كفَّنه النبي ﷺ في جُبة النبي ﷺ، ثم قدَّمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك، فقُتل شهيداً أنا شهيد على ذلك»[1].

النبي ﷺ يتزوج صفية بنت حُيي بن أخطب

وكانت صفية بنت حيي بن أخطب (زعيم اليهود) بين من أُسرن من نساء خيبر، وقعت في يد أحد الصحابة، فاستردها منه الرسول. ثم أعتقها وبنى بها، وجعل مهرها عتقها.

* * *

(١) صحيح: رواه النسائي (١٩٥٣) كتاب الجنائز، وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن النسائي (٥/ ٩٧).

فى بيت النبوة

وعادت صفية رضي الله عنها مع الحبيب ﷺ بعد أن بنى بها فى طريق العودة إلى المدينة المنورة.

وكانت فى قمة السعادة فهى التى لم يخطر ببالها أن تكون واحدة من نساء المؤمنين فكيف وهى الآن من أمهات المؤمنين.

يا لها من لحظة سعيدة يعجز القلم عن وصفها!!!

جاء البشير إلى أهل المدينة يعلمهم بقدوم رسول الله ﷺ، فخرجت المدينة تستقبل رسول الله ﷺ عند عودته من هذه الغزاة... كانت وجوه الرجال تتهلل بالبِشر، والولدان يغمرهم الفرح، بينما كانت النساء على أسطح المنازل، وقد عمرت أفئدتهم بالسرور.

أما المنافقون، فقد كانوا فى كَمَدٍ رهيب، يُظهرون غير ما تُخفى الصدور، فلقد امتلأت قلوبهم حزنًا لنصر رسول الله ﷺ، وفضحهم الله عز وجل، وجعل كلمة الذين كفروا

السفلى وكلمة الله هي العليا[1].

يهودية تضع للنبي ﷺ شاة مسمومة

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بخيبر بعد فتحها أهدت له زينب بنت الحارث - امرأة سلام بن مشكم - شاة مسمومة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ، فسألها عن ذلك، فقالت: أردت لأقتلك، فقال: «ما كان الله ليُسلطك على ذاك»، قال: قالوا: ألا نقتلها، قال: لا فما زلت أعرفها في لهوات[2] رسول الله ﷺ»[3].

وفي رواية أن الذي أهدى الشاة زينب بنت الحارث

(١) نساء أهل البيت (ص: ٣٥٢) بتصرف.
(٢) لهوات: جمع لهات، اللحمة الحمراء المعلقة في أصل الحنك، كأنه بقي للسم علامة، سواداً وغيره.
(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦١٧) كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، ومسلم (٢١٩٠) كتاب السلام.

امرأة سلام بن مشكم وقد سألت: أى عضو من الشاة أحبُّ إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السم، ثم سمَّت سائر الشاة ثم جاءت بها، فأما النبى ﷺ فأكل منها شيئًا فلم يسغها وأما بشر بن البراء ابن معرور فأساغها، وقال النبى ﷺ: «**إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم، ثم دعا بها فاعترفت**»[1].

قدوم جعفر بن أبى طالب والأشعريين

وفى هذه الغزوة قَدِم عليه ﷺ ابن عمه جعفرُ بنُ أبى طالب وأصحابه، ومعهم الأشعريون، عبدُ الله بن قيس (أبو موسى)، وأصحابُه.

ولما قَدِمَ جعفرٌ على النبىِّ ﷺ، تلقَّاه وقبَّل جبهته، وقال: «**والله ما أدرى بأيهما أفرحُ، بِفَتْحِ خيبر أم بقُدُوم جعفر؟**»[2].

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير (١٩/ ٧٠)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٢٨)، وصححه العلامة الألباني في فقه السيرة (١/ ٣٤٧).

(٢) رواه الطبراني (٢/ ١١٠، رقم ١٤٧٨). والبزار (٤/ ١٥٩، ١٣٢٨).

غزوة ذات الرقاع

ولما فرغ النبي ﷺ من كسر جناحين قويين من أجنحة الأحزاب الثلاثة: ألا وهما: قريش واليهود.. تفرغ النبي ﷺ إلى الجناح الثالث: ألا وهم الأعراب المنتشرين في صحاري نجد... والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسرقة بين آنٍ وآخر.

فقام النبي ﷺ وأصحابه بحملة تأديبية عُرفت بغزوة ذات الرقاع.

جئتكم من عند خير الناس

وكان هناك محاولة لاغتيال النبي ﷺ ولكن الله (عز وجل) دائمًا يحوطه بحفظه وعنايته.

عن جابر رضي الله عنه قال: «أقبلنا مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كنا بذات الرقاع قال: كنا إذا أتينا على شجرة ظليلة،

تركناها لرسول الله ﷺ، قال: فجاء رجل من المشركين، . . . وسيف رسول الله مُعلَّق بشجرة فأخذ سيف نبي الله ﷺ فاخترطه، فقال لرسول الله ﷺ: أتخافني؟

قال: «لا».

قال: فمن يمنعك مني؟ - أي: يحميك مني؟-.

قال: «**الله يمنعني منك**».

قال: فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ، فأغمد السيف وعلَّقه.

* وفي رواية أن هذا الرجل أخذ السيف وقال لرسول الله ﷺ: من يمنعك مني؟

قال: «**الله عز وجل**».

فسقط السيف من يديه فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟».

قال: كن كخير آخذ.

قال: «**أتشهد أن لا إله إلا الله؟**».

قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله.

قال: فذهب إلى أصحابه، قال: قد جئتكم من عند خير الناس»[1].

أثر هذه الغزوة

كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القُساة، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعد هذه الغزوة نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تجترئ أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة، بل استكانت شيئًا فشيئًا حتى استسلمت، بل وأسلمت وبهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب وساد المنطقة الأمن والسلام، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤١٣٦) كتاب المغازي، ومسلم (٨٤٣) كتاب صلاة المسافرين، وأحمد (١٤٥١٢).

البلدان والممالك الكبيرة؛ لأن داخل البلاد كانت الظروف قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين(1).

عمرة القضاء

ولما هلَّ هلال شهر ذى القعدة سنة سبع من الهجرة أمر النبى ﷺ أصحابه أن يخرجوا لعمرة القضاء.

وسُميت بعمرة القضاء لأنها كانت عن عمرة الحديبية حينما رفض المشركون دخولهم.. أو لأنها وقعت حسب المقاضاة والمصالحة التى كانت فى الحديبية.

وأمر النبى ﷺ ألا يتخلف أى أحد ممن شهد الحديبية فخرجوا جميعًا إلا من استُشهد.. وخرج معه أناسٌ آخرون حتى بلغ عددهم ألفين سوى النساء والصبيان.

وكان رسول الله ﷺ عند الدخول راكبًا على ناقته

---

(1) الرحيق المختوم (ص: ٤١٢).

القصواء، والمسلمون متوشحوا السيوف، محدقون برسول الله ﷺ يُلبون.

وفى عمرة القضاء، انساب المهاجرون فى دروب مكة يستنشقون عبير أرض الذكريات الحلوة، ويتملون مراتع الصبا والشباب فرحين مسرورين، وكانت بعض بيوتهم خاوية لا حركة فيها، قد خيَّم عليها السكون فتبعث الأسى فى النفوس، ولكنهم ألقوا عليها نظرات عابرة دون أن تترك أثرًا فى قلوبهم التى عمرها الإيمان بحب الله ورسوله ﷺ.

النبى ﷺ يأمرهم بالجرى الخفيف ليرى المشركون قوتهم

كان المسلمون المهاجرون وهم فى المدينة المنورة يستشعرون شوقًا شديدًا إلى مكة أم القرى، وكانت أعز أمانيهم أن يعودوا إليها، وأن يروا أقرباءهم وأن يرووا ظمأهم من ماء زمزم، وأن يطوفوا بالبيت العتيق، فإذا بآمالهم كلها

تتحقق، وها هم اليوم يطوفون بالبيت العتيق وهم بصحبة الحبيب المصطفى ﷺ.

* وكان المشركون يزعمون أن الصحابة لم يعد عندهم قوة لأن حُمَّى المدينة أضعفت أجسادهم.. فلما دخل النبى ﷺ وأصحابه أمرهم أن يرملوا - أى يجروا جريًا خفيفًا - فى الأشواط الثلاثة الأولى حول الكعبة حتى يرى المشركون قوتهم ونشاطهم فامتلأت قلوب المشركين حقدًا على الصحابة.

النبى ﷺ يتزوج ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها

وفى هذه العمرة تزوج النبى ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية، وكان رسول الله ﷺ قبل الدخول فى مكة بعث جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة، فجعلت أمرها إلى العباس، فزوَّجها إياه، فلما خرج من مكة خلَّف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين

يمشي فتزوجها بمكان اسمه (سرف).

المشركون يطلبون من النبى ﷺ أن يخرج من مكة

فأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثًا، فأتاه حويطب ابن عبد العُزَّى فى نفر من قريش فى اليوم الثالث، وكانت قريش قد وكلته بإخراج رسول الله ﷺ من مكة، فقالوا له: إنه قد انقضى أجلك، فاخرج عنا، فقال النبى ﷺ: «وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه».

قال: لا حاجة لن فى طعامك، فاخرج عنا. فخرج رسول الله ﷺ، وخلَّف أبا رافع مولاه على ميمونة، حتى أتاه بها بسرف، فبنى بها رسول الله ﷺ هنالك، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة فى ذى الحجة (1).

---

(1) أخرجه البخارى (٤٢٥٩) فى المغازى معلقًا، وابن هشام فى السيرة (٣/ ٣٧٢).

إسلام عمرو بن العاص
وخالد بن الوليد وعثمان بن أبى طلحة

* عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش، كانوا يرون رأيى ويسمعون منى، فقلت لهم: تعلمون والله أنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً مُنكرًا، وإنى قد رأيت أمرًا، فما ترون فيه؟

قالوا: وماذا رأيت؟

قال: رأيت أن نلحق بالنجاشى، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى، فإنًا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد، وإن ظهر قومنا، فنحن مَن قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير.

قالوا: إن هذا الرأى.

قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحب ما يُهدى إليه من أرضنا الجلد فجمعنا له جلدًا كثيرًا، ثم خرجنا

حتى قدمنا عليه.

فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمرى، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه فى شأن جعفر وأصحابه.

قال: فدخل عليه، ثم خرج من عنده.

قال: فقلت لأصحابى: هذا عمرو بن أمية الضمرى، لو قد دخلت على النجاشي، وسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى أجزأت عنها [1]، حين قتلت رسول محمد، قال: فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحبًا صديقى، أهديت إلىَّ من بلادك شيئًا؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت إليك جلدًا كثيرًا،... قال: ثم قربته إليه، فأعجبه واشتهاه.

ثم قلت له: أيها الملك، إنى قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب، ثم مد يده،

(١) أجزأت عنها: كفيتها.

فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لى الأرض لدخلت فيها فرقًا منه - أى خوفًا منه - ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك إياه...، قال: أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله!

قال: قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟

قال: ويحك يا عمرو أطعنى واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قال: قلت: أفتبايعنى له على الإسلام؟

قال: نعم، فبسط يده، فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابى، وقد حال رأيى عما كان عليه ولم أخبر أصحابى بإسلامى.

«ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟

قال: والله لقد ظهر الحق وإن الرجل لنبي، أذهب والله فأسلم، فحتى متى؟! قال: قلت: والله ما جئت إلا لأسلم.

قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد، فأسلم، وبايع، ثم دنوت، فقلت: يا رسول الله، إني أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو، بايع، فإن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله، وإن الهجرة تَجُبُّ ما كان قبلها» قال: فبايعته ثم انصرفت[1].

* * *

(١) رواه أحمد (٤/١٩٨)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن في المتابعات والشواهد.

سرية مؤتة

كان سبب هذه السرية أن رسول الله ﷺ كان قد بعث الحارث بن عُمير الأزدى بكتابه إلى ملك الروم فى الشام فتعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فأوثقه ثم قتله... وكان قتل السفراء والرسل الذين يرسلهم الملوك والرؤساء جريمة كُبرى.. فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ لما وصله هذا الخبر فجهز جيشًا من ثلاثة آلاف مقاتل ليرسله إليهم.

تعيين القادة الثلاثة

وفى هذه السرية أمَّر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وقال: «**إن قُتل زيدٌ فجعفر وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة**»[1].

---

(1) صحيح: رواه البخارى (٤٢٦١) كتاب المغازى.

ومع أن النبى ﷺ كان لا يعين لأى سرية إلا قائدًا واحدًا إلا أنه فى هذه السرية أمّر ثلاثة.. وذلك لأهمّية هذه السرية.

أهل المدينة يودعون الجيش

ولما تجهز الجيش وبدأوا فى الخروج للجهاد قام أهل المدينة يودعون الجيش ويدعون لهم بالنصر والتمكين والعودة بسلام.

المفاجأة الكبرى

لقد خرج الجيش المسلم... وخرج رسول الله ﷺ يودعهم ويدعو لهم.

* ومضى الجيش فى طريقه حتى وصلوا إلى مكان فى أرض الشام يُسمى (معان) وهنا بدأوا فى جمع المعلومات عن الجيش الذى سيقابلوه.

وإذا بالمفاجأة الكبرى فى انتظارهم... فقد علموا أن الجيش قد بلغ مائتى ألف... فى حين أن عدد المسلمين

ثلاثة آلاف رجل.

فأصبحوا بين ثلاثة حلول: إما أن يرجعوا وإما أن يطلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل لهم مددًا من الرجال وإما أن يدخلوا فيقاتلوا... وظلوا لمدة يومين ينظرون في أمرهم.

فقام عبد الله بن رواحة وقال لهم هذه الكلمات التي كانت سببًا في ثباتهم: قال لهم: يا قوم والله إن الذي تكرهون لَلذي خرجتم له تطلبون (الشهادة)، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة.

* وكان لهذه الكلمة الملتهبة أثرها، فاختفت من صفوف المسلمين مشاعر التردد، وقرروا القتال، مهما كانت النتائج.

* * *

وبدأ القتال

وهناك فى مؤتة التقى الفريقان، وبدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتى ألف مقاتل... معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبَّت ريح الإيمان جاءت بالعجائب.

أخذ الراية زيد بن حارثة - حِبُّ رسول الله ﷺ - وجعل يقاتل بضراوة بالغة، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا فى أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى شاط فى رماح القوم، وخرَّ صريعًا.

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبى طالب، وطفق يقاتل قتالاً منقطع النظير، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل حتى قُطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قُطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعًا إياها حتى قُتل.

يقال: إن روميًّا ضربه ضربة قطعته نصفين، وأثابه الله

بجناحيه جناحين فى الجنة، يطير بهما حيث يشاء، ولذلك سُمِّي بجعفر الطيار، وبجعفر ذي الجناحين[1].

ولما قُتل جعفر بعد القتال بمثل هذه الضراوة والبسالة أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم بها وهو على فرسه فجعل يُقبل على الجهاد ثم يتردد بعض الشيء.. فجاءه ابن عمه بقطعة من اللحم وقال له: خذ هذه واشدد بها صُلبك فإنك لقيت ما لقيت فى هذه الأيام من الشدة والمتاعب.

فأخذها عبد الله بن رواحة حتى نظر إلى نفسه وقال لها: وأنتِ ما زلتِ حية فى الدنيا... ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قُتل.

فأخذ الراية ثابت بن أرقم وقال: يا أيها الناس اصطلحوا على رجل منكم.

قالوا: أنت.

---

(١) أخرجه البخارى (٣٧٠٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا سلم على ابن جعفر قال: «السلام عليك يا ابن ذى الجناحين»، وقد صح مرفوعًا إثبات الجناحين لجعفر انظر «فتح البارى» (٧/٧٦).

قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم ثم انحاز حتى انصرف»[1].

لقد كان هدف (خالد) مناوشة الرومان بحيث يُلحق بهم أفدح الخسائر دون أن يُعرض كتلة الجيش لالتحام عام، وقد أفلحت هذه الخطة فى إنقاذ الآلاف القليلة التى معه، وإنقاذ سمعة المسلمين فى أول معركة لهم مع الدولة الكبرى.

والعجيب أن الرومان أعياهم هذا القتال وأصيبوا فيه بخسائر كبيرة، بل إن بعض فرقهم انكشف، وولى مهزومًا. واكتفى خالد بهذه النتيجة، وآثر الانصراف بمن معه[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ١٥٩، ١٦٠): رواه الطبرانى ورجاله ثقات.

(٢) فقه السيرة / للغزالى (ص:٤١٢).

النبى ﷺ ينعى القادة الثلاثة للناس

عن أنس رضي الله عنه: «أن النبى ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[1].

أثر المعركة

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين، إنها ألقت العرب كلها فى الدهشة والحيرة، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض.

فكان لقاء هذا الجيش الصغير - ثلاثة آلاف مقاتل - مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير - مائتا ألف مقاتل

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٢٦٢) كتاب المغازى.

- ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تُذكر، كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألِفته العرب وعرفته، وأنهم مُؤيَدون ومنصورون من عند الله، وأن صاحبهم، رسول الله حقًا، ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام.

حزن النبي ﷺ على جعفر رضي الله عنه

وهنا يذهب الحبيب ﷺ إلى أسماء بنت عُميس رضي الله عنها ليبلغها خبر استشهاد زوجها.. ويا له من مشهد يجعل القلوب تبكي الدماء بدل الدموع.

عن أسماء ابنة عُميس، قالت: لما أصيب جعفر وأصحابه دخل عليَّ رسول الله ﷺ وقد دبغت وعجنت عجيني، وغسلت بَنِيَّ ودهنتهم ونظفتهم، قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «ائتني ببني جعفر».

قالت: فأتيته بهم، فشمَّهم وذرفت عيناه، فقلت: يا

رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما يُبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟

قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم».

قالت: فقمت أصيح، واجتمعت إليَّ النساء، وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله.

فقال: «لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعامًا فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم»(١).

* * *

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٧٠).

فتح مكة

انشغل المسلمون بعد صلح الحديبية بنشر الدعوة الإسلامية في أرض الجزيرة ولكن قريشًا ارتكبت حماقة شديدة.. وذلك أنها اتفقت مع حلفائها من بني بكر على مهاجمة خزاعة التي هي مع المسلمين في حلفٍ واحد فقاتلوهم وأصابوا منهم رجالاً.

ندمٌ وأسفٌ

وليس هناك من شك في أن انتصار قريش لحلفائها ودعمها لهم على حلفاء المسلمين، هو نقض صريح لبنود صلح الحديبية أدركت قريش أخطاره، وندمت على فعلها له، ولذلك فإنها بادرت إلى إرسال أبي سفيان إلى المدينة بهدف تجديد المعاهدة لكنه عاد خائبًا، فقد فشل في الحصول على أي وعد بتجديد المعاهدة التي تضمنت بنود صلح الحديبية.

الاستعداد لفتح مكة

بدأت الاستعدادات لحشد القوة الإسلامية القصوى المستطاعة، وكان لابد من أن يُعلم النبى ﷺ أصحابه بأنه سائر إلى مكة، ثم استنفر القبائل التى تقطن قرب المدينة: فمنهم من التحق بالجيش الإسلامى فى المدينة، ومنهم من التحق بالمسلمين فى الطريق إلى مكة، وقد ارتفعت معنويات المسلمين كثيرًا، وبلغ عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل.

ولقد التزم الجميع بالسرية التامة وحُجبت الأخبار تمامًا عن قريش مما يعكس مدى الضبط والربط والالتزام الدقيق بأوامر القيادة والتقويم السليم للمصلحة الإسلامية العليا.

رسالة حاطب بن أبى بلتعة لأهل مكة

ولقد وقع فى هذه الفترة حادثة عجيبة... وهى أن رجلاً من أهل بدر وهو حاطب بن أبى بلتعة تطوع

بإرسال كتاب إلى قريش ليخبرهم بأن النبي ﷺ سائرٌ إليهم بجيشه.

وقد كان المسلمون في غاية الحرص على إخفاء خطة الغزو.

فعلم النبي ﷺ من خلال الوحي أن حاطب بن أبي بلتعة أرسل هذه الرسالة مع امرأة مشركة... فأرسل خلفها علي بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد وأخبرهم أنهم سيجدوها في مكان اسمه (روضة خاخ)... فانطلقوا فوجدوها وأخذوا منها الرسالة قبل أن تصل إلى قريش.

فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟».

فقام حاطب يعتذر لرسول الله ﷺ عن هذا الذي فعله وأخبره أنه لم يفعل ذلك عداءً للإسلام والمسلمين وإنما أراد أن يفعل ذلك لتحمي قريش أقاربه الذين يعيشون في مكة.

فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق.

فقال: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(١)(٢).

النبى ﷺ يخرج لفتح مكة

وخرج النبى ﷺ سنة ثمان للهجرة لفتح مكة وكان معه عشرة آلاف من جنود الإسلام من سائر القبائل خرجوا معه جميعًا لفتح مكة حتى تصبح دارًا للإسلام كما أصبحت المدينة.

* * *

(١) سورة الممتحنة: الآية: (١).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٩٨٣) كتاب المغازى، ومسلم (٢٤٩٤) فضائل الصحابة - واللفظ لمسلم -.

قصة إسلام أبى سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبى أمية

ومضى النبى ﷺ وأصحابه حتى نزل مَرَّ الظَّهران، ومعه عشرةُ آلاف، وعمَّى اللهُ الأخبار عن قريش، فهم على وجل وارتقاب، وكان أبو سفيان يخرج يتحسس الأخبار؟ فخرج هو وحكيمُ بنُ حزام، وبُديلُ بن ورقاء يتحسسُون الأخبار، وكان العباسُ قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا، فلقى رسول الله ﷺ بالجُحفة.

وكان أبو سفيان بن الحارث وعبد الله ابن أبى أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ فى ثنية العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك، وصهرك فقال: (لا حاجة لى فيهما أما ابن عمى، فهتك عرضى وأما ابن عمتى وصهرى، فهو الذى قال لى بمكة ما قال).

فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبى سفيان بن

الحارث ابن له فقال: والله ليأذن رسول الله ﷺ، أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا أو جوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما.

قصة إسلام أبي سفيان

وهنا ذهب العباس عم النبي ﷺ إلى أبي سفيان وقال له:

يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك.

فقال له أبو سفيان: وماذا أصنع؟

قال له العباس: اركب خلفي.. فركب خلفه وأخذه العباس إلى النبي ﷺ فلما رآه عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله هذا أبو سفيان دعني أضرب عنقه.

فقال العباس: مهلاً يا عمر.. لو كان من قبيلتك ما قلت هذا.

فقال عمر: مهلاً يا عباس لا تقل هذا.

فوالله لإسلامك حين أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب أبي لو أسلم، وذلك أني عرفت أن إسلامك أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: «يا عباس اذهب به إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتنا به».

فذهبت به إلى الرحل، فلما أصبحت غدوت به، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟».

فقال: بأبي وأمي ما أحلمك، وأكرمك وأوصلك، وأعظم عفوك.

قال العباس: فقلت: ويلك أسلِم، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن يضرب عنقك. فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

قال العباس: فقلت: يا رسول الله! إن أبا سفيان يحب الفخر، فاجعل له شيئًا.

فقال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمِن، ومن أغلق بابه فهو آمِن»[1].

تواضع النبي ﷺ

ودخل النبي ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا حانيًا رأسه لله (جل وعلا) حتى كادت لحيته أن تلامس دابته التي يركبها وهو يُسبح ويذكر الله ويشكره ويقرأ سورة الفتح .

دخل النبي ﷺ المسجد الحرام وطاف بالكعبة المشرفة .

فصرخ سعد بن عُبادة وهو يقول: اليوم يوم الملحمة اليوم تُستحل الكعبة .

فقال النبي ﷺ : «... هذا يومٌ يُعظم الله فيه الكعبة»[2].

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٨٠) كتاب الجهاد والسير .
(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٢٨٠) كتاب المغازي .

النبى ﷺ يطهر المسجد الحرام من الأصنام

وسكنت مكة واستسلم سادتها وأتباعها، وعلت كلمة الله فى جنباتها، ثم نهض رسول الله إلى البيت العتيق فطوَّف به وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله. ويضربها بقوسه ظهرًا لبطن، فتقع على الأرض مهشمة متناثرة.

كانت هذه الحجارة - قبل ساعة - آلهة مُقدَسة وهى - الآن - تراب وأنقاض! يهدمها نبى التوحيد وهو يقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1][2].

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨١).

(٢) فقه السيرة للغزالى (ص: ٤٢٦).

النبى ﷺ يصلى داخل الكعبة... ويعفو عن قريش

ودخل النبى ﷺ الكعبة بعد أن طلب من عثمان بن طلحة أن يفتحها فدخل النبى ﷺ وصلى فيها ومكث فيها وقتًا طويلاً.

ثم خرج النبى ﷺ ونظر إلى كفار قريش وقال لهم: «يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل بكم؟».

قالوا: خيرًا، أخٌ كريم، وابنُ أخٍ كريم.

قال: «فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾(١) اذهبوا فأنتم الطلقاء».

❊ ❊ ❊

(١) سورة يوسف: الآية: (٩٢).

اليوم يوم بر ووفاء

ثم جلس في المسجد فقام إليه عليٌّ رضي الله عنه، ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله! اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدُعي له.

فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بِرٍّ ووفاء».

بلال يؤذن فوق الكعبة

وأمر رسولُ الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن فوق الكعبة، وأبو سفيان بن حرب وَعتّاب بن أُسيد، والحارث بن هشام، وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة.

فقال عتاب: لقد أكرم الله أُسيدًا ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه.

فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حقٌّ لاتبعته.

فقال أبو سفيان: أما والله لا أقول شيئًا، لو تكلمتُ،

لأخبرت عنى هذه الحصباءُ.

فخرج عليهم النبى ﷺ فقال لهم: «قَدْ علمت الذى قلتم» ثم ذكر ذلك لهم.

فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطَّلع على هذا أحد كان معنا، فنقول: أخبرك[1].

إسلام والد أبى بكر الصديق رضي الله عنه

فلما دخل رسول الله ﷺ مكة، ودخل المسجد أتاه أبوبكر رضي الله عنه بأبيه يُمسك بيده فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه».

قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه.

قال: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «أسلِم»، فأسلَم[2].

---

(١) زاد المعاد (٣/٤٠٩-٤١٠).

(٢) رواه أحمد (٦/٣٤٦ رقم: ٢٧٠٠١)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

أخذ البيعة

ولما فتح الله على رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ (مكة) علم أهل مكة أنهم كانوا على الباطل وأن النبى ﷺ ما جاءهم إلا بالحق فقاموا ليعلنوا التوحيد لله (عز وجل) فى مشهد مهيب يعجز القلم عن وصفه.

السرايا والبعوث

وبثَّ رسول الله ﷺ سراياه إلى الأوثان التى كانت حول الكعبة. فكُسِّرتْ كلها... منها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.

ونادى مناديه بمكة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنمًا إلا كسره».

***

غزوة حُنين

لقد دخل أكثر أهل مكة فى الإسلام بعد الفتح وإن كان بعضهم بقى على جاهليته يتعلق بالأصنام.

ومع أن فتح مكة جعل العرب يعرفون قدر المسلمين وقوتهم إلا أن فتح مكة كان له رد فعل مُعاكس مع بعض القبائل الكبيرة القريبة من مكة. . . وفى مقدمتها (هوازن وثقيف) وهى أكبر المدن فى الجزيرة بعد مكة ويثرب.

اجتمع رؤساء هذه القبائل على (مالك بن عوف) سيد هوازن وأجمعوا أمرهم على المسير لقتال المسلمين قبل أن يتحرك المسلمون لقتالهم.

* * *

خروج المشركين للغزوة

واجتمعت قبيلة هوازن مع ثقيف وغيرها من القبائل الصغيرة التي حولها وجعلوا القيادة لمالك بن عوف.

فلما أجمع المسير لقتال رسول الله ﷺ أخذ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم حتى لا يفر أحدٌ منهم.

وفي الطريق اجتمع إليه الناس وفيهم (دُريد بن الصِّمَّة) فلما علم أن مالك بن عوف قد أخذ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم نصحه أن يردهم ولا يفعل ذلك.

فقال مالك: لقد أخذتهم حتى لا يفر رجلٌ منهم وهو يعلم أن خلفه أبناءه ونساءه.

فقال دُريد: وهل يرد المنهزم شيء؟

وظل دُريد ينصحه بأن يرد النساء والأولاد فلم يستجب مالك للنصيحة.

* * *

وأنزل جنوداً لم تروها

وبدأ مالك يُخمس جيشه ويأمرهم بأن يضربوا المسلمين ضربة رجلٍ واحد ثم بعث مالك بعض الجواسيس والعيون ليعرفوا أخبار النبى ﷺ وأصحابه.

فذهبوا ليعرفوا الأخبار وعادوا وهم فى غاية الدهشة.

فقال لهم مالك: ما شأنكم؟

قالوا: رأينا رجالاً بيضاً يركبون الخيل.. ولا نستطيع أن نصف لك كثرتهم ولا قوتهم.

ولم يعلموا أن الرجال الذين رأتهم العيون هم الملائكة، إذ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[1] أى لم يرها أصحاب رسول الله ﷺ وهم يحضرون المعركة.

* * *

(١) سورة التوبة: الآية: (٢٦).

النبى ﷺ يرسل إليهم (عبد الله بن أبى حدرد)

ولما سمع بهم نبى الله ﷺ، بعث إليهم عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى، وأمره أن يدخل فى الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبى حدرد، فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ﷺ. وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.



النبي ﷺ يستعير الدروع من صفوان بن أمية

فلما أجمع رسولُ الله ﷺ السير إلى هوازن، ذُكِرَ له أن عند صفوان بن أمية أدراعًا وسلاحًا، فأرسل إليه، وهو يومئذٍ مشرك، فقال: يا أبا أمية! أعِرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غدًا.

فقال صفوان: أغصبًا يا محمد؟

قال: «**بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك**»[1].

فقال: ليس بهذا بأس.

فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح[2].

* * *

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٨)، والبيهقي (٦/ ٨٩) بإسناد صحيح.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٦٨).

الجيش الإسلامى يتحرك

كان جيش الفتح فى مكة مستعدًا إذ لم يلق مقاومة تُذكر فى فتح مكة، كما أن إقامته فى مكة بعد الفتح مدة خمسة عشر يومًا قد منحته الكثير من الراحة واستعادة النشاط، إضافة إلى ما تحقق له من ارتفاع فى الروح المعنوية بما منحه الله من نصر، ولذلك فإنه كان مهيئًا لمواجهة عدوان المشركين، وقد تحرك جيش المسلمين بناء على أمر قائده النبى ﷺ فى اليوم الخامس من شوال سنة ٨ هـ ميممًا نحو تجمعات المشركين فى حُنين، وقد ثبت مشاركة أبناء مكة فى غزوة حنين فى صفوف المسلمين، فقد شارك ألفا مقاتل من أهل مكة، فبلغ عدد قوات الجيش الإسلام اثنى عشر ألف مقاتل، وهو أكبر جيش للمسلمين يخرج للقتال فى حياة النبى ﷺ حتى هذه الغزوة... وكان النبى ﷺ حريصًا على تأمين قواته لذلك فقد اهتم بحراسة الجيش ومراقبة تحركات العدو.

النبي ﷺ يبشرهم بغنائم حنين

* عن سهيل بن الحنظلية رضي الله عنه: «أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين. حتى كانت عشية، فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس، فقال: يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن ومعهم خيلهم وأغنامهم وإبلهم... اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله»[1].

* * *

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٥٠١) كتاب الجهاد، وصححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٨).

مفاجأة لم تخطر على بالهم

إن السهولة التى تم بها فتح مكة وإحساس المسلمين أن المشركين قد ضعفت شوكتهم فلن يستطيعوا مقاومة المسلمين بعد ذلك جعلتهم يدخلون غزوة حُنين وهم على يقين من أنهم سينتصرون عليهم... وبخاصة أن عدد المسلمين كان كبيراً.

* وصار الجيش حتى وصل إلى وادى حنين.

وكان مالك بن عوف ورجاله قد سبقوا إلى الوادى واحتلوا الأماكن المنيعة والهامة فى ذلك الوادى ثم تهيئوا لاستقبال المسلمين.

* وأقبل المسلمون وهم لا يدرون ماذا ينتظرهم.

فلما دخل المسلمون فى دروب الوادى فوجئوا بوابل من السهام تتساقط من الأماكن العالية فوق رؤوسهم.

وانتشر الفزع بين صفوف المسلمين... وبدأ المسلمون يستديرون ثم يولون الأدبار.

واستغل مالك بن عوف ورجاله هذا الفزع الذي دَبَّ في صفوف المسلمين وهاجموهم فانهزم المسلمون في بداية الأمر.

وانحاز النبي ﷺ ذات اليمين. وبدأ ينادي على أصحابه ويقول: «**إليَّ أيها الناس هَلُمَّ إليَّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله**»[1] فلم يُجبه أحد.

إلا أن مع رسول الله ﷺ رهطًا من المهاجرين والأنصار وأهل بيته غير كثير، وفيمن ثبت معه ﷺ أبو بكر وعمر ومن أهل بيته علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وابنه الفضل بن عباس، وأبو سفيان ابن الحارث وربيعة بن الحارث وأيمن بن عبيد، وهو ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد.

* * *

---

(١) رواه أحمد (٣/٣٧٦ رقم: ١٥٠٦٩) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن إسحاق فهو صدوق حسن الحديث.

أين أصحاب السمرة؟

وقف النبي ﷺ يفكر ما الذي ينبغي أن يفعله لِيُنقذ سمعة الإسلام ومستقبله.. فأمر عمه العباس ابن عبد المطلب بأن ينادي على أصحاب السمرة (وهي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان) فقام العباس ينادي بأعلى صوته (وكان صوته قويًا): أين أصحاب السمرة؟ فسمعه المسلمون فعادوا إلى الجهاد مرة أخرى وأخذوا يقاتلون قتالاً شديدًا.

* ثم أخذ النبي ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار وهو يقول: «**انهزموا ورب محمد**»[1].

* * *

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٧٥) كتاب الجهاد والسير.

اللهم أنزل نصرك

وكعادة النبي ﷺ في كل غزواته فلقد أخذ يدعو ويدعو ويلجأ إلى الله (عز وجل) لينصره ومَن معه من المؤمنين لأنه يعلم أن النصر لا يأتي إلا من عند الله (عز وجل).

* ونزل النبي ﷺ ودعا وطلب النصر من الله وهو يقول:

أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبد المطلب

اللهم نزِّل نصرك [1].

- فأنزل الله نصره على الموحدين بعدما أخذوا درسًا كبيرًا في أن النصر ليس بالعدد ولا بالقوة وإنما النصر من عند الله وحده ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [2].

وهكذا لم تصمد قوات المشركين طويلاً في الجولة

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٧٦) كتاب الجهاد والسير.
(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٢٦).

الثانية حين صدق المسلمون ما عاهدوا الله عليه، وأجرى الله تعالى على يد نبيه المعجزة الواضحة، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١) .

انهارت قوى الشرك، وفرّت من ميدان المعركة بشكل غير منظم مُخلّفة وراءها أعداداً كثيرة من القتلى وكمية كبيرة من الغنائم، كما خلفت شراذم من قواتها تمكن المسلمون من القضاء عليهم بسهولة، وأمر النبي ﷺ بتعقب المشركين المهزومين وقتلهم حتى يمنع إمكانية تجمعهم ثانية واحتمال عودتهم إلى القتال فكانت خسائر المشركين في القتلى خلال هزيمتهم أعظم من خسارتهم خلال المعركة. وقد نهى النبي ﷺ عن قتل النساء والأجراء وكل من لا يحمل السلاح، كما نهى عن قتل

(١) سورة التوبة: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

الأولاد والذرارى حين بلغه أن بعضهم قد قُتل خلال المعركة»[1].

من قتل كافرًا فله سلبه

وكان النبى ﷺ يشجع أصحابه على أن يقتلوا أكبر عدد من المشركين فجعل لكل من يقتل كافرًا الحق فى أن يأخذ كل ما معه من متعلقات.

عن أنس رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ يومئذ يعنى يوم حنين: «**من قتل كافرًا، فله سلبه**»، فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً، وأخذ أسلابهم»[2].

* * *

---

(١) نضرة النعيم (١/٣٧٨، ٣٧٩) بتصرف.

(٢) رواه أبو داود (٢٧١٨) كتاب الجهاد والدارمى والحاكم (٣/٣٥٣) وصححه ووافقه الذهبى.

الغنائم

وكان سبى حنين كثيرًا، فقد بلغ ستة آلاف من النساء والأبناء أما الغنائم فقد بلغت أربعة آلاف أوقية فضة أما الإبل فكانت أربعة وعشرين ألفًا أما الأغنام فكانت أكثر من أربعين ألف شاة وقد حبس الرسول ﷺ هذا السبى والغنائم بالجعرانة ليتصرف فيها بعد الفراغ من أمر الطائف.

* * *

غزوة الطائف

تجمعت قوات المسلمين فى أعقاب النصر المظفر الذى كتبه الله لهم فى معركة حنين، وتوجهوا بقيادة النبى ﷺ إلى الطائف بهدف القضاء على قوات ثقيف التى فرت من حنين، وكانت ثقيف بقيادة مالك بن عوف قد لجأت إلى حصونها المنيعة فى الطائف وجمعت ما يكفيها من المؤن الغذائية لعام كامل، وأغلقت أبوابها واتخذت كافة الإجراءات والاستعدادات التى تمكنها من مواجهة حصار طويل وواصلت ترميم الحصون وتدعيمها إلى حين وصول طلائع المسلمين المتجهة نحوهم [١].

❋ ❋ ❋

(١) السيرة لابن هشام (٤/ ١٧٠-١٧١).

الأحداث التى كانت فى الطائف

وصل الجيش الإسلامى إلى الطائف فى حدود نهاية الأسبوع الثالث من شهر شوال، فباشروا إحكام الحصار حول حصون العدو مدة أسبوعين، وكان نزولهم أول الأمر قريبًا من حصون العدو وعلى مرمى سهامهم مما أدى إلى سقوط عدد من الشهداء وجُرح عدد آخر منهم، ثم تحول المسلمون وعسكروا فى الموضع الذى بُنى فيه المسجد(١) ، وكان القتال تراشقًا بالسهام فى أول الأمر، ثم استخدم المسلمون «الدبابة» بهدف الوصول إلى الأسوار وثقبها آمنين من السهام، ولكن ثقيفًا فطنت للأمر فألقت عليهم قطع حديد مُحماة أحرقت الدبابة وحين خرج المقاتلون المسلمون منها، ضربوهم بالسهام فقتلوا بعضهم.. واستخدم المسلمون المنجنيق لرمى التحصينات بالحجارة بهدف هدمها وإيقاع إصابات فى قوات العدو فى الوقت

(١) مسلم - الصحيح (٢/٧٣٦)، أحمد - المسند (٣/١٥٧).

نفسه، غير أن قلة هذه الآلات وعدم وجود خبراء في استعمالها وإجادة التهديف بها جعل أثرها محدودًا [1].

لذلك فقد وجد النبي ﷺ أن أفضل وسيلة للضغط على ثقيف هي في تهديد مواردها الاقتصادية الحيوية المتمثلة في بساتينها، فأمر ﷺ بتحريق بساتين الأعناب والنخيل في ضواحي الطائف، مما كان له أثره الكبير في كسر معنوياتهم، فناشدوا النبي ﷺ أن يتركها فاستجاب لهم النبي ﷺ بعد أن تحقق الهدف المنشود[2][3].

* * *

---

(١) ابن هشام - السيرة (٢/ ٤٧٨ - ٤٨٣) برواية ابن إسحاق.

(٢) البيهقي - السنن الكبرى (٩/ ٨٤)، الشافعي - كتاب الأم (٧/ ٣٢٣).

(٣) نضرة النعيم (١/ ٣٨١).

من بلغ بسهم فله درجة فى الجنة

عن أبى نجيح عمرو بن عبسة السلمى رضي الله عنه قال: حاصرنا مع رسول الله ﷺ قصر الطائف، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بلغ بسهم فله درجة فى الجنة». فبلغت يومئذ بستة عشر سهمًا[1].

النبى ﷺ يعتق كل من نزل من الحصن

ونادى منادى النبى ﷺ عبيد الطائف قائلاً: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر»، فنزل إليهم ثلاثة وعشرون عبدًا، منهم أبو بكرة نفيع بن الحارث الثقفى، فأسلموا، فأعتقهم النبى ﷺ، ولم يُعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم، غير أن كل ذلك لم يؤثر كثيرًا فى عناد ثقيف التى صمدت بوجه الحصار، ورغم ما واجهته من

---

(١) صحيح: رواه النسائي (٣١٤٣) كتاب الجهاد، وصححه العلامة الألباني فى صحيح الترغيب الترهيب (١٢٨٤).

وابل السهام التى أمطرها بها المسلمون لينالوا بها درجة من الجنة وعدهم بها رسول الله ﷺ، وقد تمكنت ثقيف من إيقاع إصابات شديدة بالمسلمين فقد كثرت الجراحات بينهم واستشهد منهم اثنا عشر شهيدًا، وكل ذلك مقابل ثلاثة قتلى فى صفوف ثقيف التى كانت ممتنعة بالحصون والأسوار العالية[1][2].

النبى ﷺ يدعو لهم بالهداية

وهنا جاء بعض الصحابة للنبى ﷺ وقالوا له: يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادعُ الله عليهم فقال النبى ﷺ: «اللهم اهد ثقيفًا».

ولما طال الحصار واستعصى على المسلمين ذلك الحصن أخذ النبى ﷺ أصحابه ورحلوا عنهم وتركوهم.

* * *

(١) البخارى - الصحيح (٨/ ٢٠) - ابن هشام - السيرة (٢/ ٤٨٦ - ٤٨٧).
(٢) نضرة النعيم (١/ ٣٨١).

تقسيم الغنائم

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف؛ مكث بالجعرانة بضع عشر ليلة لا يقسم الغنائم، ويتأنى بها يبتغي أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين، فيحرزوا ما فقدوا، ولكنه لم يجئه أحد فبدأ بقسمة المال، ليُسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى وحظى بالأنصبة الجزلة [1].

عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: «أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعُيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم، مائة من الإبل».

* * *

(١) الرحيق المختوم (ص: ٤٥٦).

موقف مؤثر بين النبى ﷺ والأنصار

وجاءت لحظة مُؤثرة فى حياة رسول الله ﷺ والأنصار، فإنّ النبى ﷺ أراد أن يُعطى لأهل مكة من الذين أسْلموا يوم الفتح بعض المكاسب والغَنائم؛ حتى يُصلح قُلوبهم، ويحبوا الله ورسوله والمسلمين، فلمّا رأى الأنصار هذا حَزِنوا فى أنفسهم، وقالوا:

وَجَد رسول الله أهله؛ فأعطاهم.

فلما سمع رسول الله هذا؛ جَمَع الأنصار فى مكان واحد، ثم وقف فيهم خطيبًا يقول:

«يا مَعْشَرَ الأنصار، ما هذا الذى بَلَغنِى عنكم؟

لو شِئْتم لَقُلتم جئتنا خائفًا فأمَّنَّاك، وطَرِيدًا فآويناك، ومخذُولاً فنصرناك».

قالوا: بل لله المنُّ والفَضْلُ علينا ولرسوله.

فقال ﷺ: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلالاً فَهداكم الله بى؟ ألم أجدكُم مُتفرقين فَألّفكُم اللهُ بى؟ وعالةً(١) فأغناكُم

---

(١) فقراء.

الله بي؟».

ثم قال ﷺ: «أما ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون أنتُم برسول الله، والله لو سَلَكَ الناس طريقًا وسلك الأنصار طريقًا لسلكتُ طريق الأنصار، ولولا الهجرة لكنت من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى الأنصار حتى ابتلت لحاهم، وقالوا:

رضينا برسول الله حظًا وقسمًا ونصيبًا [1].

* * *

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٧٦ رقم: ١١٧٤٨)، وصححه العلامة الألباني في فقه السيرة (١/ ٣٩٧).

قدوم وفد هوازن

وبعد قسمة الغنائم قَدِم وفد من هوازن يعلن إسلامهم ويلتمس من رسول الله ﷺ رد أموالهم وذراريهم عليهم، فخيَّرهم بين الأموال والسبى فاختاروا السبى، فجمع النبى ﷺ المسلمين وخطب فيهم، وقال إنه يريد أن يرد السبى لهوازن.. فردوا إليهم نساءهم وأبناءهم.

كان إسلام (هوازن) نصرًا

ولقد كان إسلام هوازن نصرًا آخر كتبه الله للمسلمين سُرَّ به النبى ﷺ فسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف ووعدهم بردِّ أهله وأمواله عليه وبإكرامه بمائة من الإبل إن قَدِم عليه مسلمًا، فأسلم وحسن إسلامه وقاتل المشركين فى الطائف وضيَّق عليهم، وقد أسلم بعد ذلك بعض زعماء ثقيف أمثال عروة بن مسعود الثقفى الذى لحق بالنبى ﷺ فى طريق المدينة فأسلم على يديه وعاد إلى

الطائف يدعـو إلى الإسلام، ويؤذن من على سطح منزله فرماه بعض المشـركين فأصابه، ودُفن بناء على وصيته مع شهداء المسلمين أثناء حصار الطائف[١].

أما غالبية قبيلة ثقيـف فقد تأخر إسلامهم إلى ما بعد عـودة النبي ﷺ من غزوة تبـوك وسنعـرض لذلك في حينه إن شاء الله [٢].

* * *

(١) البداية والنهاية (٥/ ٢٩).
(٢) نضرة النعيم (١/ ٣٨٤).

غزوة تبوك

كانت غزوة تبوك فى شهر رجب سنة تسع من الهجرة وكانت فى وقت عُسرة من الناس وجدب فى البلاد... وبدأت الثمار تطيب فى هذا الوقت فكان الناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الخروج للغزو فى هذا الوقت لأنه كان وقت جنى الثمار.

* وكانت الأخبار قد وصلت إلى النبى ﷺ أن الرومان قد قامت بإعداد جيشها للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين.

* وعاش المسلمون لحظات عصيبة فقد كانوا لا يسمعون صوتًا غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان نحو المدينة المنورة.. وهذا يدل على خطورة الموقف الذى كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان.

* ولذلك أمر النبى ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الرومان فى ديارهم قبل أن يأتوا إلى المدينة المنورة.

تجهيز جيش العُسرة

ولقد دعا النبي ﷺ أصحابه إلى الإنفاق على هذه الغزوة نظرًا لكثرة المشاركين فيها، وبُعد المسافة التي كان على الجيش أن يقطعها، ووعدهم بعظم الأجر من الله سبحانه وتعالى فسارع أغلب الصحابة إلى المشاركة في توفير الأموال المطلوبة كلٌ حسب مقدرته، وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين على جيش العسرة استجابة لقول النبي ﷺ : «**من جهز جيش العُسرة فله الجنة**» وتواترت الأخبار الصحيحة بأن عثمان بن عفان قد تحمل نفقات جيش العسرة، فلقد سارع بتقديم ألف دينار في بداية الاستعدادات صبًّها في حجر النبي ﷺ كما قدم أموالاً أخرى تتمثل في الجِمال والعُدد التي يحتاج إليها في نقل الجيش والحرب حتى قال النبي ﷺ : «**ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم**»[1].

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٧٠١) كتاب المناقب، وحسنه العلامة في صحيح الترمذي.

* وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كله ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله، وكانت أربعة آلاف درهم، وهو أول من جاء بصدقته، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة، كلهم جاؤوا بمال، وجاء عاصم بن عدى بتسعين وسقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مُدًا أو مدين لم يكن يستطيع غيرها؛ وبعثت النساء ما قدرن عليه من الذهب ولم يُمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون.

* ومنهم من لم يستطع أن يتصدق إلا بنصف صاع فقال المنافقون: إن الله لغنى عن صدقة هذا الرجل فنزل قول الله: ﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: الآية: (٧٩).

* ومنهم من قال: اللهم إنك أمرتنا أن نتصدق وإنى لا أجد ما أتصدق به غير أنى أتصدق على كل من شتمنى أو سبَّنى أو آذانى فقد سامحته ابتغاء وجهك.

أعذار المنافقين

وظهر النفاق فى هذه الغزوة بشكل لا يخطر على قلب بشر.

فقد قال بعض المنافقين لبعضهم: لا تنفروا فى الحر.

فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

وذلك أن الخروج فى غزوة تبوك كان فى شدة الحر عند طيب الظلال والثمار فلهذا قالوا: ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التى تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم

(١) سورة التوبة: الآيتان: (٨١-٨٢).

منه من الحر بل ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ من النار.

ومنهم من اعتذر عن الخروج للجهاد لأنه يخشى على نفسه من فتنة نساء الروم ومنهم من اعتذر بأعذارٍ واهية أخرى حتى لا يخرج مع النبى ﷺ.

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبة للتميز بين المؤمنين والمنافقين، وضحت فيها الحواجز بين الطرفين ولم يعد هناك أى مجال للتستُّر على المنافقين أو مجاملتهم بل أصبحت مجابهتهم أمرًا مُلحًا بعد أن عملوا كل ما فى وسعهم لمجابهة الرسول والدعوة، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنفير الذى أعلنه الله تعالى والرسول ﷺ والذى نزل به القرآن الكريم، بل أصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافهم عند حدهم واجبًا شرعيًا [1].

* * *

(١) نضرة النعيم (١/٣٨٩).

البكاءون

وفي المقابل جاء مجموعة من الفقراء الصادقين الذين لا يملكون مالاً ولا دابة يركبون عليها للجهاد... جاءوا إلى النبي ﷺ يطلبون منه أن يحملهم معه فاعتذر النبي ﷺ قائلاً: «والله لا أجد ما أحملكم عليه»[1].

فما كان منهم إلا أن عادوا وهم يبكون فقد كانوا يشتهون الجهاد مع رسول الله ﷺ.

فلما رأى الله (عز وجل) حرصهم على محبته ومحبة رسوله ﷺ أنزل الله عُذرهم في كتابه فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾[2].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٤٩) كتاب الأيمان والنذور، ومسلم (١٦٤٩) كتاب الأيمان.

(٢) سورة التوبة: الآيتان: (٩١، ٩٢).

وهم ولا شك الذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله وهو عائد من تبوك: «لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم واديًا ولا سلكتم طريقًا إلا أشركوكم فى الأجر حبسهم المرض»(1).

الجيش الإسلامى يتحرك إلى تبوك

ولما تجهَّز الجيش الإسلامى استعمل النبى ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة وخرج النبى ﷺ بهذا الجيش الكبير الذى بلغ ثلاثين ألفًا من الناس وبلغت الخيول عشرة آلاف فرس.

* ولما سار النبى ﷺ تخلف عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين ومن كان معه من المنافقين.

* وتخلف بعض الصحابة الأفاضل الذين لم يتخلفوا

(1) رواه أحمد (٣/ ٣٠٠)، ومسلم (١٣/ ٥٧) الإمارة، وقال النووى: وفى هذا الحديث فضيلة النية فى الخير، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات فعرض له عذر منعه حصل له ثواب نيته وأنه كلما أكثر من التأسف على فوات ذلك وتمنى كونه مع الغزاة ونحوهم كثر ثوابه والله أعلم - النووى على صحيح مسلم (١٣/ ٥٧).

عن شكٍّ ولا ارتياب ولا نفاق.. منهم: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع.

* **وتخلف أيضًا:** أبو خيثمة وأبو ذر لكنهما لحقا بالنبي ﷺ بعد ذلك وشهدا غزوة تبوك.

ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟

ولما أراد النبي ﷺ الخروج خلَّف علي بن أبي طالب على أهله.

فقال المنافقون: والله ما تركه النبي إلا استثقالاً وتخففًا منه فأخذ (عليٌّ) سلاحه وخرج إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله ﷺ أتُخلفني في النساء والصبيان.

فقال: «أما ترضى أن تكوني مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي»[1].

* * *

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري (٤٤١٦) كتاب المغازي - ومسلم (٢٤٠٤) كتاب فضائل الصحابة.

مرورهم على ديار ثمود

وفي الطريق مرَّ النبي ﷺ وأصحابه على ديار ثمود قوم صالح الذين هلكوا لما خالفوا أمر نبيهم صالح (عليه السلام).

فلما نزلوا أرض ثمود قام الصحابة بإحضار الماء من البئر وعجنوا به ليأكلوا فأمرهم النبي ﷺ أن يسكبوا الماء وأن يعلفوا الإبل بذلك العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تشرب منها الناقة.

ثم قال للصحابة: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم»[1].

❊ ❊ ❊

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٨١) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٩٨٠) كتاب الزهد والرقائق.

النبى ﷺ يدعو...
والسماء تمطر بإذن الله

وفى الطريق عطش الصحابة عطشًا شديدًا حتى ظنوا أن رقابهم ستنقطع من شدة العطش.. حتى إن أحدهم من شدة العطش كان يذبح بعيره ويعصر فرثه ليشربه ويجعل ما بقى على كبده.

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله! إن الله عز وجل قد عودك فى الدعاء خيرًا فادع الله لنا.

قال: «أتحب ذلك؟».

قال: نعم.

فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أمطرت السماء فملأوا ما معهم وشربوا.. ثم نظروا إلى المكان الذى نزل فيه المطر فوجدوا أن المطر لم يجاوز المكان الذى كانوا فيه.

* **وهنا قال أحد المنافقين مُنكرًا هذه المعجزة:** سحابة مارة.

أى أنه يريد أن يقول أن دعاء النبى ﷺ لم يكن سببًا فى نزول المطر بل إن السحابة كانت تمر مصادفة أثناء الدعاء فأمطرت.

* وفى الحقيقة أن هذه الغزوة كانت غزوة العسرة فعلاً فقد كانت عُسرة فى قلة الدواب التى يركبونها فقد كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير واحد يركبه كل واحدٍ منهم مسافة ثم يعطيه لأخيه...

وكانت عُسرة فى الطعام والماء فقد كان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر يخرجون وليس معهم إلا بعض التمرات فإذا بلغ الجوع من أحدهم مبلغًا عظيمًا أخذ تمرة ووضعها فى فمه حتى يجد طعمها ثم يعطيها لأخيه ليمصها... وهكذا عاش هؤلاء الصحابة على الصدق والصبر واليقين.



الماء ينهمر من عين تبوك

وفى الطريق قال لهم النبى ﷺ : «إنكم ستأتون غداً عين تبوك فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتى».

فلما وصلوا إلى عين تبوك وجدوا ماءها قليلاً لا يكفى أحداً.

فأمرهم النبى ﷺ أن يغرفوا بأيديهم بعض الماء وأن يأتوا إليه بذلك الماء فغرفوا الماء فى إناء وجاءوا به إلى النبى ﷺ فغسل فيه يديه ووجهه ثم أعاده فى عين تبوك فانهمرت العين بالماء حتى استقى الناس جميعًا [1].

كُنْ أبا خيثمة

ثم إن أبا خيثمة الذى كان قد تخلف عن رسول الله ﷺ لعدة أيام دخل يومًا على زوجتيه فوجدهما فى عريشين لهما فى بستانه قد رشّت كل واحدة منهما عريشها

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٠٦) كتاب الفضائل.

وبرّدت له الماء وهيأت له الطعام.. فلما دخل قام على باب العريش ونظر إلى امرأتيه وقال: رسول الله في الشمس والحر والريح وأنا أجلس في الظل البارد والطعام.. والله لا يكون ذلك أبدًا.. والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ... فهيئا له زادًا وأحضرا له دابته فركبها ورحل خلف النبي ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك.

قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل.

فقال رسول الله ﷺ: «كُن أبا خيثمة»[1].

قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة.

فلما أناخ أقبل. فسلَّم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة»، فأخبر رسول الله ﷺ خبره.

فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير[2].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٣١).

رحم الله أبا ذر

ثم مضى رسول الله ﷺ سائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان.

فيقول: «دعوه فإن يك فيه خير فسيُلحقه الله تعالى بكم. وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»، حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره؛ فقال: «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»؛ وتلوَّم أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا.

ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا لرجل يمشي على الطريق وحده.

فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر».

فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر.

فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده ويموت وحده، ويُبعث وحده»(١).

المصالحة وإعطاء الجزية

نزل الجيش الإسلامي بتبوك فعسكر هناك وهو مستعد للقاء العدو.

وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء.

بل تفرقوا في البلاد في داخل حدودهم فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية، في داخل الجزيرة وأرجائها النائية.

وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٢ ، رقم ٤٣٧٣) وقال: صحيح الإسناد، وابن عساكر (٦٦/ ٢١٦).

* وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وصالحوه وأعطوه الجزية وأعطاهم النبى ﷺ العهد والأمان على أنفسهم وأولادهم وأموالهم.

* ولا عجب فى هذا الرعب الذى حدث للروم قبل أن يروا النبى ﷺ فقد قال ﷺ: «.. **ونُصرت على العدو بالرعب ولو كان بينى وبينه مسيرة شهرٍ لمُلئ منى رعبًا**»[1].

* وأقام النبى ﷺ بتبوك عشرين يومًا.

* * *

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٥) كتاب التيمم، ومسلم (٥٢١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة بلفظ: «.....ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر».

عاقبة الاستهزاء بدين الله (عز وجل) وبرسوله ﷺ

وفي غزوة تبوك تأخر بعض المنافقين خلف النبي ﷺ وأخذوا يسخرون من النبي ﷺ وأصحابه حتى قالوا عنهم: ما رأينا مثل قُرائنا هؤلاء لا أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء.

فجاء جبريل (عليه السلام) وأخبر النبي ﷺ بما قالوا.. فدعاهم النبي ﷺ وأخبرهم بما قالوا... فاعتذروا للنبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فقال لهم ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[١].

* * *

(١) سورة التوبة: الآيتان: (٦٥-٦٦).

محاولة اغتيال النبى ﷺ

وحاول جماعة من المنافقين المشاركين فى الجيش وهم ملثمون حتى لا يُعرفوا أن ينفروا بدابة النبى ﷺ لتطرحه من رأس عقبة فى الطريق مع عتمة الليل، فعلم بمؤامرتهم وفطن لهم وأمر بإبعادهم بعد أن عصمه الله تعالى من أذاهم.

النبى ﷺ يخبر حذيفة بأسماء المنافقين

وجاء جبريل (عليه السلام) إلى النبى ﷺ ليخبره بأسماء المنافقين فقام النبى ﷺ ودعا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وأسرّ له بأسماء المنافقين.. فعلم حذيفة كل أسماء المنافقين وكان صاحب سر رسول الله ﷺ.

* * *

استقبال حافل

ولما أشرف النبي ﷺ على المدينة قال: «هذه طابة وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه»[1].

ولما اقترب الجيش الإسلامي من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع لاستقباله، ومعهم النساء والولائد وهم يرددون[2]:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع

كان أول ما فعله النبي ﷺ عند دخول المدينة أن صلى في مسجده الشريف ركعتين، ثم جلس للناس فجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة فاعتذروا بشتَّى

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤٢٢) كتاب المغازي، ومسلم (١٣٩٢) كتاب الحج.

(٢) أورد ذلك الحافظ ابن حجر في فتح الباري عند شرح الحديثين (٤٤٢٦ - ٤٤٢٧).

الأعذار فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى[1] .

موقف النبى ﷺ من المنافقين

وقد أصبح الموقف جديًا من المنافقين بعد الرجوع من غزوة تبوك، فقد امتنع النبى ﷺ عن الصلاة فى مسجد الضرار الذى كانوا بنوه قبل الغزوة وأمر بتحريقه[2] ، كما امتنع عن الصلاة على أمواتهم فقد منعه الله من ذلك فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[3] .

وقد نهى الله تعالى عن قبول أعذار المنافقين، فقال فى محكم التنزيل: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ

---

(١) صحيح: رواه البخارى - الصحيح (فتح البارى - الحديث ٤٤١٨)، ومسلم (٤/٢١٢٣) حديث (٢٧٦٩).

(٢) تفسير الطبرى (١١/٢٣-٢٤).

(٣) سورة التوبة: الآية: (٨٤).

إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١) .

وقد أمر الله تعالى بعدم تصديقهم وبالإعراض عنهم ووصفهم بأنهم رجس فقال تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾(٢)(٣) .

أثر هذه الغزوة

لقد كان لهذه الغزوة أثر عظيم فى سكان شبه الجزيرة لا يقل روعة وجلالاً عن أثر فتح مكة ولئن كان فتح مكة قد نبَّه العرب إلى حقيقة كانت غائبة عن عقولهم وهى إدراك الحق الذى بُعث به محمد ﷺ فقد كانت غزوة تبوك داعية لهم لأن يسرعوا بالدخول فى هذا الحق الذى دعاهم إليه .

---

(١) سورة التوبة: الآية: (٩٤).

(٢) سورة التوبة: الآيتان: (٩٥-٩٦).

(٣) نضرة النعيم (١/ ٣٩٤).

إن خروج المسلمين بجيش ضخم بلغ تعداد جنوده ثلاثين ألفًا فيهم عشرة آلاف فارس أمرٌ لم تعرفه العرب من قبل فى بلادها، أما وقد استطاع المسلمون تجميع هذا الجيش فهم ولا شك قادرون على أن يفعلوا ما عجز عنه غيرهم وتحريك هذا الجيش من المدينة إلى تبوك وهى مسافة هائلة تبلغ قرابة ستمائة ميل وفى وقت عسرة وجدب وفى ذلك النظام وتلك الدقة دليل على عظمة القيادة وجزمها وخبرتها العسكرية الواسعة بشؤون الحرب، وعلى حسن تدريب الجنود وعظيم طاعتهم.

ولقد كان فرار الروم وهم البادئون - وهم فى بلادهم، ولجوؤهم إلى التحصن داخل البلاد حتى لا يدركهم المسلمون أعظم دليل على قوة المسلمين التى لا يستطيع أحد الوقوف أمامها، فهؤلاء الروم هم الذين هزموا الفرس وأخرجوهم من جنوب الجزيرة واستردوا منهم الصليب المقدس وأعادوه إلى القدس فى احتفال رائع... هؤلاء هم الذين فروا وانسحبوا من الميدان عندما

واجهوا المسلمين، أفلا يكون ذلك دليلاً على قوة المسلمين وقدرتهم على مواجهة أى عدو يهددهم. هذه الأمور مجتمعة حركت نفوس سكان شبه الجزيرة نحو الإسلام[1].

الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك

وعلى الرغم من أن عددًا كبيرًا من المنافقين كانوا قد تخلفوا عن غزوة تبوك إلا أنه كان هناك ثلاثة من المؤمنين الصادقين قد تخلفوا أيضًا عن غزوة تبوك.

فلما عاد النبى ﷺ من الغزوة وجاءه المنافقون يحتالون ويكذبون من أجل أن يعذرهم النبى ﷺ.. فقبل النبى ﷺ اعتذارهم وترك سرائرهم وحسابهم على الله (جل وعلا).

* أما الثلاثة الذين كانوا من المؤمنين الصادقين وهم: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع فقد عاقبهم

(١) تأملات فى السيرة النبوية لمحمد السيد الوكيل (٢٨٩).

النبى ﷺ حتى لا يتخلفوا عنه بعد ذلك أبدًا وحتى يربيهم تربية إيمانية تجعلهم لا يتأخرون بعد ذلك عن تنفيذ أمر الله وأمر رسول الله ﷺ .

- لقد منع النبى ﷺ المسلمين عن أن يُكلموا هؤلاء الثلاثة لمدة أربعين يومًا وبعد الأربعين أمر النبى ﷺ هؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم فذهبت زوجة كعب ابن مالك إلى أهلها وكذلك زوجة مرارة ابن الربيع .

أما زوجة هلال بن أمية فقد استأذنت النبى ﷺ فى أن تبقى لخدمة هلال لأنه رجل كبير ومريض فأذِن لها النبى ﷺ على ألا يقترب منها زوجها .

- وضاقت الدنيا على الثلاثة. . . فلا أحد يكلمهم ولا أحد يزورهم أو يسلم عليهم فشعروا بحزنٍ شديد حتى كادوا أن يموتوا من شدة الحزن .

* وبعد مرور خمسين يومًا على هجر النبى ﷺ وأصحابه لهؤلاء الثلاثة. . كان كعب بن مالك جالسًا على سطح بيته بعد صلاة الفجر فسمع صوت رجل

يصرخ بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر..

يقول كعب: فخررت ساجدًا وعرفت أنه قد جاء الفرج.

فقد كان النبي ﷺ قد أخبر أصحابه بعد صلاة الفجر بتوبة الله على كعب بن مالك وصاحبيه.. فذهب بعض الناس يبشرون هلال بن أمية ومرارة بن الربيع... وجاء هذا الرجل ليبشر كعب بن مالك.

يقول كعب: فلما جاءني هذا الرجل يبشرني بتوبة الله علينا نزعت له ثوبين فكسوتهما إياه بهذه البشارة وكنت لا أملك غيرهما فاستعرت ثوبين غيرهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ.. والناس يقابلونني ويهنئونني بالتوبة.

حتى دخلتُ المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره.

فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال

وهو يبرقُ وجههُ من السرور: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمُك».

فقلتُ: أمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله؟

قال: «لا بل من عند الله عز وجل».

وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجههُ حتى كأن وجههُ قطعة قمر.

قال: وكنا نعرف ذلك.

قال: فلما جلستُ بين يديه قُلتُ: يا رسول الله إن من توبتى أن أترك مالى صدقة إلى الله وإلى رسُوله.

فقال رسُول الله ﷺ: «أمسِك عليك بعض مالك فهُو خير لك».

قال: فقلتُ إنى أمسك سهمى الذى بخيبر.

وقلت: يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجانى بالصدق، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيتُ[1].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤١٨) كتاب المغازى، ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

فأنزل الله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(١) .

قال كعب: والله ما أنعم اللهُ عليَّ من نعمة قَطُّ بعد إذ هدانى اللهُ للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسولِ الله ﷺ أن لا أكُون كذبته، فأهلَك كما هلك الذين كذبوا.

أبنائى الأعزاء: أرأيتم كيف أن الصدق يُنجى صاحبه فى الدنيا والآخرة.

موت رأس المنافقين

وبعد عودة النبى ﷺ من غزوة تبوك توفى رأس المنافقين - عبد الله بن أُبى بن سلول - .

---

(١) سورة التوبة: الآيات: (١١٧-١١٩).

النبى ﷺ يعوده فى مرضه

* عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: «دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أُبى فى مرضه نعوده.

فلما مات أتاه ابنه فقال: يا رسول الله إن عبد الله بن أُبى قد مات، فأعطنى قميصك أكفنه فيه، فنزع رسول الله ﷺ قميصه فأعطاه إياه»(١).

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

وعلى الرغم من العداء الذى وجده النبى ﷺ من رأس المنافقين إلا أنه لما علم بموته ذهب إلى قبره فأخرجه ونفث فيه من ريقه وألبسه قميصه.. وليس هذا الأمر بغريب ولا عجيب، فإن النبى ﷺ هو الحبيب الذى أرسله الله رحمة للعالمين.

* عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «أتى النبى ﷺ

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٦٩) كتاب اللباس، ومسلم (٢٧٧٤) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.

عبد الله بن أبي بعدما دُفن، فأخرجه فنفث فيه من ريقه، وألبسه قميصه»[١].

ولا تُصلِّ على أحدٍ منهم مات أبدًا

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لما توفي عبد الله بن أبي ابن سلول، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه.

فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! تصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟

فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[٢]، وسأزيده على سبعين» قال عمر: إنه منافق، ... فصلى

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٧٠) كتاب الجنائز - ومسلم (٢٧٧٣) كتاب صفات المنافقين.

(٢) سورة التوبة: الآية: (٨٠).

عليه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾[1][2] .

توحيد الجزيرة العربية تحت حكم رسول الله ﷺ

تأثر موقف القبائل العربية من الرسول والدعوة الإسلامية بمؤثرات متداخلة، كان من أبرزها موقف قريش وأحلافها، ولعل بعضها كان يحسب لبنى الأصفر - الروم - حسابًا، وخاصة تلك القبائل التى سكنت فى أطراف الجزيرة الشمالية قريبًا من تخوم الروم، فلما كان فتح مكة وما تبع ذلك من إسلام قريش وكسر شوكة هوازن فى موقعة حنين، وإذلال ثقيف ومحاصرتها سقط الحاجز الأساسى الأول فبادر كل قوم بإسلامهم، ثم كانت غزوة تبوك وامتداد سلطان المسلمين إلى خطوط التماس مع

(١) سورة التوبة: الآية: (٨٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٦٩) كتاب الجنائز - ومسلم (٢٧٧٤) كتاب صفات المنافقين.

الروم وعقد المحالفات مع أيلة وأذرح وغيرهما، وتسوية الأمور مع دومة الجندل بالصلح، ثم مصالحة نصارى نجران فى الأطراف الجنوبية على أن يدفعوا الجزية، فلم يعد أمام القبائل العربية إلاَّ المبادرة الشاملة إلى اعتناق الإسلام والالتحاق بركب النبوة بالسمع والطاعة، ونظرًا لكثرة وفود القبائل العربية التى قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربية بعد عودة النبى ﷺ من غزوة تبوك لتعلن إسلامها هى ومن وراءها، فقد سُمِّى العام التاسع للهجرة فى المصادر الإسلامية بعام الوفود[1].

❊ ❊ ❊

(١) نضرة النعيم (١/ ٣٩٥ - ٣٩٦).

عام الوفود

وبدأت الوفود تأتي إلى النبي ﷺ لتعلن إسلامها وتوحيدها لله (جل وعلا)... وقد زادت تلك الوفود على سبعين وفدًا.

قدوم وفد ثقيف

كان أول الوفود قدومًا إلى النبي ﷺ بعد رجوعه من تبوك هو وفد قبيلة ثقيف.

وقد سبق أن أشرنا إلى إسلام عروة بن مسعود الثقفي على يدي رسول الله ﷺ قبيل وصوله المدينة، عند عودته من مكة بعد الفتح، وذكرنا أن النبي ﷺ أمره أن يرجع إلى قومه بالإسلام، وقد فعل ذلك فأظهر لهم دينه، ودعاهم إلى الإسلام، غير أنهم اجتمعوا عليه فرموه بسهامهم وهو يؤذن في أعلى داره فقتلوه، ثم ائتمر زعماء

ثقيف فيما بينهم فوجدوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من قبائل العرب وقد بايعت وأسلمت فأجمعوا على أن يرسلوا إلى النبى ﷺ وفدًا (١) .

وهكذا تتابعت الوفود

وهكذا تتابعت الوفود لتعلن التوحيد لله جلَّ وعلاً . . . ولقد ذكرت هنا بعض الوفود لأن المجال لا يسمح بذكر كل الوفود التى جاءت إلى النبى ﷺ .

وهكذا كانت السيادة للإسلام على كافة أنحاء الجزيرة العربية فى العام التاسع، حيث تمت الوحدة السياسية لجميع أصقاعها تحت رايته، فلقد تمكن النبى ﷺ من تحقيق الوحدة السياسية للجزيرة فى أقل من عشر سنوات رغم جميع العراقيل والنزعات القبلية والجاهلية والمشكلات المتنوعة .

* وتتابع هذه الوفود يدل على مدى ما نالت الدعوة

(١) نضرة النعيم (١/٣٩٦ - ٣٩٧).

الإسلامية من القبول التام وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال، حتى لم تكن ترى محيصًا عن الاستسلام أمامها، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب، لا يمكن صرف النظر عنها، إلا أننا لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم، لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعًا لسادتهم، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد مما تأصل فيها من الميل إلى الغارات، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب، وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة: ﴿ **الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (٩٧) **وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[1] وأثنى على آخرين منهم فقال: ﴿ **وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ**

(١) سورة التوبة: الآيتان: (٩٧، ٩٨).

ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم﴾[1] .

أما الحاضرون منهم في مكة والمدينة وثقيف، وكثير من اليمن والبحرين؛ فقد كان الإسلام فيهم قويًا ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين[2] .

النبي ﷺ يرسل معاذًا وأبي موسى إلى اليمن

عن أبي بُردة قال: «بعث رسولُ الله ﷺ أبا موسى ومُعاذ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كل واحد منهما ثم قال: «يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنفِّرا».

فانطلق كل واحد منهما إلى عمله، وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه كان قريبًا من صاحبه أحدث به عهدًا فسلم عليه[3] .

❊ ❊ ❊

(١) سورة التوبة: الآية: (٩٩).

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية / للخضري (١/ ١٤٤).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٤٣٤١) كتاب المغازي.

وصية النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال رسـول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعـثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تُؤخَذ من أغنيائهم فتُرد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[1].

❋ ❋ ❋

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٤٧) كتاب المغازي - ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.

فراق مؤلم

وها هو النبي ﷺ يخبر معاذًا بأنه لن يراه بعد اليوم أبدًا... وكان ما أخبر به النبي ﷺ فلقد ذهب إلى اليمن ومات النبي ﷺ ولم يره معاذ رضي الله عنه.

من حديث عاصم بن حميد السكوني رضي الله عنه: «أن معاذ ابن جبل لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن، فخرج النبي ﷺ يوصيه ومعاذ راكب، ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ. قال: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري» فبكى معاذ جشعًا [(١)] لفراق النبي ﷺ [(٢)].

* * *

(١) جشعًا: خوفًا وحزنًا.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢١٥٤٩)، وصححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٩٧).

حجة الوداع

أعلن رسول الله ﷺ نيته بالحج، وأشعر الناس بذلك حتى يصحبه من شاء.. والحج هذه المرة جاء مغايرًا لما ألفته العرب أيام جاهليتها.

انتهت العهود المعطاة للمشركين، وحُظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام.

فأصبح أهل الموسم - قاطبة - من الموحدين الذين لا يعبدون مع الله شيئًا، وأقبلت وفود الله من كل صوبٍ تُيمم وجهها شطر البيت العتيق، وهى تعلم أن رسول الله ﷺ، هو فى هذا العام أمير حجهم ومُعلمهم مناسكهم!

ونظر النبى ﷺ إلى الألوف المؤلفة من الصحابة وهم يُلبون ويسرعون إلى أداء تلك الفريضة فامتلأ قلبه فرحًا وسعادة ﷺ.

* وخرج بهم النبي ﷺ وأدَّى مناسك الحج كلها وهو يقول لأصحابه: «**خذوا عني مناسككم**»(١).

* ولما انتهى النبي ﷺ وأصحابه من أداء المناسك وقف يخطب في المسلمين قائلاً: «أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع»(٢).

وفي رواية أنه قال: «.... ألا لا يجني جانٍ إلا على نفسه، ولا يجني والد على ولده، ولا ولد على والده، ألا إن المسلم أخو المسلم، فليس يحل لمسلم من أخيه شيء إلا ما أحل من نفسه.

ألا وإن كل ربا في الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون غير ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله.

ألا وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وأول دم وضع من دماء الجاهلية دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كان

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢٩٧) كتاب الحج بلفظ: «... لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه».
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٢١٨) كتاب الحج.

مسترضعًا في بني ليث فقتله هذيل.

ألا واستوصوا بالنساء خيرًا فإنما هن عوان - يعني أسيرات - عندكم ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة بينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً.

ألا إن لكم على نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا، فأما حقكم على نسائكم، فلا يوطئن فُرشكم مَن تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم من تكرهون، ألا وإن حقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»(١).

* وهكذا وضع النبي ﷺ تلك الأسس الأخلاقية للمسلمين لكي يتمسكوا بها ويسيروا عليها... فلقد اكتملت الشريعة ونزل على النبي ﷺ يوم عرفة قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (٢).

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٣٠٨٧) كتاب تفسير القرآن، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٧٨٨٠).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٣).

وصيته ﷺ عند عودته إلى المدينة

* عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ يومًا خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكَّر.

ثم قال: «أما بعد: ألا أيها الناس! فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب. وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله. واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي»[1].

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (٨/ ٢٤٠) كتاب فضائل الصحابة.

بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين

كانت كبرياء دولة الروم قد جعلتها تأبى أن يكون للإسلام وجود في أي بقعة في أرضها... وحملها ذلك على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه، كما فعلت بفروة بن عمرو الجذامي الذي كان وليًا على معان من قِبل الروم.

ونظرًا إلى هذه الجراءة والغطرسة أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشًا كبيرًا في صفر سنة ١١ هـ وأمَّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، يبغي بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا مُعقب له، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه الخوف فحسب.

وتكلم الناس في قائد الجيش لحداثة سنه، واستبطأوا في بعثه[١].

(١) الرحيق المختوم (ص: ٥٠٣).

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أمَّر رسول الله ﷺ أسامة على قوم فطعنوا فى إمارته فقال: «إن تطعنوا فى إمارته فقد طعنتم فى إمارة أبيه من قبله، وايمُ الله لقد كان خليقًا للإمارة، وإن كان من أحبِّ الناس إلىَّ، وإن هذا لمن أحبِّ الناس إلىَّ بعده»(1).

* * *

(1) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٥٠) كتاب المغازى، ومسلم (٢٤٢٦) كتاب فضائل الصحابة.

مرض الرسول ﷺ ووفاته

* إن الأحداث العظيمة تسبقها بعض العلامات التى تشير إلى قُرب وقوعها.

وقد تم للمسلمين فتح مكة أم القرى فى السنة الثامنة من الهجرة المباركة، وفى السنة التاسعة أقبلت الوفود تُقر بالإسلام أو تعطى الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وأرهب جيشُ العسرة الذى خرج به النبى ﷺ جحافل الروم حتى فرّوا من مواجهته، ودانت جزيرة العرب بالإسلام، وكان ذلك بعد عشر سنين من جهاد النبى ﷺ المتواصل وصحابته الكرام ﷺ، فكل العلامات تشير إلى انتهاء مهمة رسول الله ﷺ فقد بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وأصبح الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك[1].

---

(١) وقفات تربوية (ص: ٣-٤).

* ويا لها من لحظات عصيبة عندما أحمل قلمي لأسطِّر به تلك الصفحات التي تحكي قصة مرض وموت النبي ﷺ .

فموت النبي ﷺ من أعظم المصائب التي أصيب بها المسلمون ولذلك قال ﷺ : «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها من أعظم المصائب»[1] .

* * *

(١) صحيح: رواه الدارمي (٨٤) في المقدمة، وصححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٠٦) .

العلامات التى أشارت إلى قرب انتهاء أجله ﷺ

ولقد سبق موت النبى ﷺ علامات تشير إلى قُرب انتهاء أجله ﷺ فمن بين ذلك :

أنه ﷺ كان يعتكف كل سنة عشرًا فى رمضان فاعتكف فى السنة الأخيرة عشرين ليلة وكان جبريل يعارضه القرآن مرة فى رمضان فعارضه فى السنة الأخيرة مرتين .

* ومن ذلك ما رواه أحمد عن معاذ قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشى تحت راحلته، فلما فرغ قال: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى فبكى معاذ جشعًا لفراق رسول الله ﷺ، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولَى الناس بى المتقون مَن

كانوا وحيث كانوا»[1].

* وخرج النبي ﷺ للحج في السنة العاشرة وقال: «خذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا وطفق يودع الناس»[2].

ونزل عليه بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[3].

* وفي ثاني أيام التشريق نزل عليه قوله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[4].

- فكانت هذه السورة تخبر بانتهاء أجل النبي ﷺ وتنعى إليه نفسه.

* ومن هذه العلامات أنه ﷺ خرج إلى أحد فصلى

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣٥) قال الهيثمي: رواه أحمد بإسنادين ورجال الإسنادين رجال الصحيح غير راشد بن سعد وعاصم بن حميد وهما ثقتان - مجمع الزوائد (٩/ ٢٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة المائدة: الآية: (٣).

(٤) سورة النصر: الآيات: (١-٣).

على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات.

* ومن هذه العلامـات كثرة تـتابع الوحي على رسول الله ﷺ.

* ومن هذه العلامات أنه ﷺ كان يُرغـبهم في كثرة مـلازمتـه والجلوس إليه قـبل أن يُحرَمـوا ذلك، ويتمنى أحدهم لو رآه بأهله وماله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قـال: قـال رســول الله ﷺ: «والذي نفس محـمد بيده ليـأتين على أحدكم يوم ولا يراني، ثم لأن يراني أحب إليه من أهله وماله معهم»(١).

فأولوه على أنه نعـى نفسه إليـهم وعرَّفهم مـا يحدث لهم بعده من تمني لقائه عند فقدهم ما كانوا يشاهدون من بركاته عليه السلام.

* ومن هذه الإشارات زيارته لأهل البـقيع واستغـفاره لهم:

* **عن أبي مويهـبة مولى رســول الله ﷺ قال:** «بعثني

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٦٤) كتاب الفضائل.

رسول الله ﷺ من جوف الليل، فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أُمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي»، فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم، قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى، ثم أقبل عليَّ». فقال: «يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة».

قال: فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، قال: «لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة»، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه»[1].

* * *

(١) رواه أحمد (١٥٥٦٧) والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

بداية مرضه ﷺ

وفى اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ وكان يوم الاثنين - شهد رسول الله ﷺ جنازة فى البقيع، فلما رجع، وهو فى الطريق أخذه صداع فى رأسه، وارتفعت درجة حرارة النبى ﷺ .. فدخل على عائشة فوجدها تقول: وارأساه.

فقال: «بل أنا والله يا عائشة وارأساه».

ثم أخذ المرض يشتد برسول الله ﷺ حتى ازداد عليه ثقل المرض وهو فى بيت ميمونة.. فدعا النبى ﷺ نساءه واستأذنهن فى أن يُمرَّض فى بيت عائشة فأذنَّ له جميعًا.

ويدخل عليه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فوجد النبى ﷺ وقد اشتد عليه المرض فقال له: يا رسول الله! إنك لتوعك وعكًا شديدًا.

فقال رسول الله ﷺ: «أجل: إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم».

قال: فقلت: ذلك أن لك أجرين.

فقال رسول الله ﷺ: «أجل»[1].

وطلب النبى ﷺ منهم أن يسكبوا عليه سبع قِرب من الماء فأحضروا ماءً كثيرًا وأخذوا يصبوا عليه الماء حتى زالت عنه بعض الحرارة ﷺ.

وقام النبى ﷺ يخطب فى الناس وينعى نفسه إليه فقال:

«إن عبدًا خَيَّره اللهُ بين زَهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده؛ فاختار ما عند الله».

ولم يَفْهَم أحدٌ من الصحابة أن هذه لحظات الوداع، إلا أبو بكر الذى بكى وقال:

فَديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله[2].

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٤٨) كتاب المرضى، ومسلم (٢٥٧١) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٩٠٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٨٢) كتاب فضائل الصحابة.

الوصايا التى أوصى بها النبى ﷺ قبل وفاته

وها هو الحبيب ﷺ يوصى أصحابه ﷺ والأمة من بعدهم بتلك الوصايا الغالية.

فأوصاهم النبى ﷺ بعدم اتخاذ القبور مساجد.

وأوصاهم بإغلاق الأبواب المفتوحة على المسجد إلا باب أبى بكر.

وأوصاهم بالأنصار خيراً.

وأوصاهم بالصلاة وبالرفق بالنساء.

فعن على رضي الله عنه قال: «كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»[1].

إلى غير ذلك من الوصايا التى أوصاهم بها رسول الله ﷺ.

* * *

(١) صحيح: رواه أبو داود (٥١٥٦) كتاب الأدب، وصححه العلامة الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦١٦).

مُروا أبا بكر فليصلّ بالناس

والنبي ﷺ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم - يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام - وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها بالمرسلات.

وعند العشاء زاد ثقل المرض بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ثقل النبي ﷺ فقال: «أصلّى الناس؟».

قلنا: لا، وهم ينتظرونك يا رسول الله.

قال: «ضعوا لي ماءً في المخضب».

قالت: ففعلنا. فاغتسل ثم ذهب لينوء فأُغمي عليه، ثم أفاق فقال ﷺ: «أصلّى الناس؟».

قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله.

فقال: ضعوا لي ماءً في المخضب.

قالت: فقعد فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأُغمى عليه، ثم أفاق فقال: «أصلى الناس؟».

فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله.

فقال: «ضعوا لى ماءً فى المخضب» فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأُغمى عليه ثم أفاق فقال: «أصلى الناس؟».

فقلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله... والناس عكوف فى المسجد ينتظرون النبى عليه السلام لصلاة العشاء الآخر - فأرسل النبى ﷺ إلى أبى بكر بأن يصلى بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلى بالناس، فقال أبو بكر - وكان رجلاً رقيقًا - يا عمر صلِّ بالناس، فقال له عمر: أنت أحق بذلك. فصلى أبو بكر تلك الأيام[1].

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧) كتاب الأذان - ومسلم (٤١٨/ ٩٠) كتاب الصلاة.

قبل الوفاة بيوم

وقبل يوم من الوفاة - يوم الأحد - أعتق النبى ﷺ غلمانه، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته، وفى الليل استعارت عائشة الزيت للمصباح من جارتها، وكانت درعه ﷺ مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعًا من الشعير(١) .

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦٧) ومسلم (١٦٠٣) والنسائي (٧/ ٢٨٨).

النبى ﷺ يدعو لأسامة بن زيد

وعن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما قال: «لما ثقل رسول الله ﷺ هبطت وهبط الناس المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمت فلم يتكلم، فجعل رسول الله ﷺ يضع يديه علىَّ ويرفعهما فأعرف أنه يدعو لى»(1).

* * *

(1) رواه الترمذى (٣٨١٧) وأحمد (٥/ ٢٠١) وابن هشام (٢/ ٦٥١)، وحسنه الشيخ مصطفى العدوى فى الصحيح المسند من فضائل الصحابة.

آخر يوم فى حياة النبى ﷺ

وخرج النبى ﷺ فى صبح اليوم الذى لحق فيه بالرفيق الأعلى ينظر إلى ثمرة جهاده وصبره فألقى على أصحابه الذين أحبوه وأحبهم نظرة وداع فكادوا يُفتنون من الفرح به ﷺ ظنًّا منهم أنه ﷺ قد عوفى من مرضه ولم يظنوا أنه ينظر إليهم نظرة الوداع حتى يلتقى بهم على حوضه وفى جنة الله عز وجل... ولو علموا ذلك لتفطرت قلوبهم.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر كان يصلى لهم فى وجع النبى ﷺ الذى توفى فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين - وهم صفوف فى الصلاة - كشف النبى ﷺ ستر الحجرة، فنظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ثم تبسم يضحك فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبى ﷺ فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف وظنّ النبى ﷺ خارج إلى الصلاة فأشار إلينا

النبى ﷺ أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر فتوفى من يومه»[1]. ثم لم تأتِ على النبى ﷺ صلاة أخرى[2].

* وكأن الله تعالى أراد أن يُطمئن النبى ﷺ على كمال انقياد أمته وحسن اتباعها فأشهده آخر وقت حضره وهو فى الدنيا، إذ أقبل المؤمنون من بيوتهم إلى المسجد فجر الاثنين الذى قُبض فيه، واصطفوا لصلاتهم خُشعًا مخبتين، وراء إمام رقيق التلاوة فياض الإخلاص، ورفع النبى ﷺ الستر المضروب على منزل عائشة، وفتح الباب وبرز للناس.

فكاد المسلمون يُفتنون فى صلاتهم ابتهاجًا برؤيته، وتفرجوا يُفسحون له مكانًا فأشار بيده: أن اثبتوا على صلاتكم، وتبسم فرحًا من هيئتهم فى صلاتهم.

قال أنس بن مالك: ما رأيت رسول الله أحسن هيئة منه فى تلك الساعة.

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٠) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٩) كتاب الصلاة.

(٢) نقلاً من وقفات تربوية (ص: ٤١٢) للدكتور أحمد فريد.

ثم رجع وانصرف الناس، وهم يظنون أن رسول الله قد أفاق من وجعه، واطمأن أبو بكر لهذا الظن، فرجع إلى أهله بالسنح- في ضواحي المدينة.

قالت عائشة: وعاد رسول الله من المسجد، فاضطجع في حجري[1].

النبي ﷺ ينعى نفسه إلى فاطمة (عليها السلام)

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «اجتمع نساء النبي ﷺ، فلم تغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ.

قال: «مرحبًا بابنتي» فأجلسها عن يمينه أو عن شماله.

ثم إنه أسرَّ إليها حديثًا فبكت فاطمة.

ثم إنه سارَّها فضحكت أيضًا.

فقلت: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن.

(١) فقه السيرة للغزالي (ص:٥١٨).

فقلت لها حين بكت: أخصك رسول الله ﷺ بحديثه دوننا ثم تبكين؟

وسألتها عما قال فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ.

حتى إذا قُبض سألتها فقالت: إنه كان حدثني: «أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة، وإنه عارضه به في العام مرتين، ولا أراني إلا قد حضر أجلي، وإنك أولُ أهلي لحوقًا بي، ونعم السلف أنا لك» فبكيت لذلك.

ثم إنه سارني فقال: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة فضحكت لذلك» [1].

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٢٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٥٠) كتاب فضائل الصحابة.

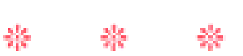
ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم

وعن أنس قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه فقالت فاطمة عليها السلام: وا كرب أبتاه، فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»(١).

شدة تأثر النبي ﷺ بالطعام المسموم (يوم خيبر)

* ودعا النبي ﷺ الحسن والحسين فقبَّلهما وأوصى بهما خيراً ثم دعا أزواجه فوعظهن وذكَّرهن بالله (عز وجل).

وأحسَّ رسول الله بآثار السُّم يوم خَيبر تَجرى فى جسده، فاشتد الوجع والألم عليه، وهو يقول: «لا إله إلا الله إن للموت لَسكرَات»(٢).



(١) صحيح: رواه البخارى (٤٤٦٢) كتاب المغازى - وأحمد (٣/٢٠٤).
(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٤٤٩) كتاب المغازى.

اللهم الرفيق الأعلى

ثم نزل جبريل عليه السلام يقول:

يا مُحمد إن ربك إليك مُشتاق، وإنه قد بعث معى ملك الموت يَستأذن عليك وما استأذن على أحد قبلك، ولن يستأذن على أحد بعدك، وهذا آخرُ عَهْدى بالدنيا ولن أهبط إلى الأرض بعد ذلك على أحدٍ من بعدك.

فقال رسول الله ﷺ : «وأنا مُشتاق إلى ربى».

ثم نظر إلى السماء، وتحركت شفتاه قائلاً:

«مع الذين أنعم الله عليهم من النَّبيين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصالحين، اللهم اغفر لى وارحمنى، وألحقنى بالرَّفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى».

وغُمضت عَينَا رسول الله، وسكت صَوْته، وصعدت روحه لمولاه، وآن للجسد المُتعَب أن يَستريح، ولرسول الله أن يَعيش برُوحه فى السَّماء بجوار ربه ومولاه، فإنَّا لله

وإنا إليه راجعون.

وأظلمت أرجاء المدينة بعد أن كانت مُنيرة برسول الله حتى قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما رأيتُ يَومًا قطُّ كان أحسَنَ ولا أضوأ من يوم دخل علينا رسول الله، وما رأيت يومًا كان أقبَح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله..[1].

❋ ❋ ❋

(١) حياة محمد (ص: ٢٥٣: ٢٥٥).

وهكذا فاضت أطهر روح من أطهر جسد

وتسرب النبأ الفادح من البيت المحزون.

وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت، لا يدرون ما يفعلون.

ووقف عمر بن الخطاب -وقد أخرجه الخبر عن وعيه- يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي، وإن رسول الله ما مات ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة. ثم رجع بعد أن قيل قد مات.

والله ليرجعن رسول الله ﷺ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات[1]!

ولما علمت فاطمة (عليها السلام) بموته ﷺ قالت: يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دُفن قالت فاطمة عليها

(١) فقه السيرة للغزالي (ص: ٥١٩).

السلام: يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب»[1].

موقف أبي بكر رضي الله عنه

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ وهو مُغشَّى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكبَّ عليه فقبَّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مُتَّها.

ثم خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر.

فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر.

فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦٢) المغازي - وأحمد (٣/ ٢٠٤).

الله حى لا يموت. قال الله: ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾[1].

قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها.

وهكذا مات رسول الله ﷺ ولكن سنته باقية إلى يوم القيامة وستبقى سيرته دماءً حية تنبض فى العروق وتحيا بها القلوب وستبقى لترسم لنا جميعًا منهج حياة طيبة يسعد بها المسلم فى الدنيا والآخرة.. بشرط أن يتعايش مع سيرته وسنته بقلبه وجوارحه.

أبنائى الأحباء: هكذا قصصت عليكم سيرة الرسول ﷺ فتمسكوا بسُنّته واعرفوا سيرته لتسعدوا فى الدنيا بنعمة الاتباع وفى الآخرة بصحبته ﷺ فى تلكم الجنة التى أعدها لكم الرحمن (جل جلاله).. تلكم الجنة التى

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٤٤).

فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

عمو / محمود المصرى

أبو عمار



الفهرس

الفهرس

الموضوع | الصفحة

* * *